كريستينا فرناندث كوباس

حجرة نونا

مكتبة

ترجمة : علي إبراهيم أشقر

حجرة نونا

حجرة نونا - قصص
تأليف: كريستينا فرناندث كوباس
ترجمها عن الإسبانية: علي إبراهيم أشقر

La habitación de Nona
Cristina Fernández Cubas

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 62 - 7
الطبعة الأولى: 2021

3 3 2023
telegram
@soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© Cristina Fernández Cubas, 2015
Arabic translation rights arranged with Casanovas & Lynch Agencia Literaria
First Published April 9th 2015 by Tusquets Editores S.A.

كريستينا فرناندث كوباس

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

حجرة نونا

قصص

ترجمها عن الإسبانية:
علي إبراهيم أشقر

حصلت ترجمة هذا العمل على منحة من
وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية.

GOBIERNO
DE ESPAÑA

MINISTERIO
DE CULTURA
Y DEPORTE

DIRECCIÓN GENERAL
DEL LIBRO
Y FOMENTO DE LA LECTURA

فهرس

حجرة نونا.. 11

محادثة العجائز.................................. 39

داخلٌ مع صورة 49

نهاية باربرو....................................... 67

الحياة الجديدة 99

أيّام مع الوازي – وانو 113

إلى آنا دِ تورد.

مع غمزةٍ بالعين إلى الزمن.

«الواقع ببساطة وهم، وإن يكن ثابتاً جدّاً»

ألبِرت إينشتاين

حجرة نونا

telegram @soramnqraa

أختي مُميّزة. هذا ما قالته أمّي يوم وُلدت في حجرة المستشفى البيضاء المعرّضة للشمس. وقالت أيضاً: «مميّزة كلمة جميلة جدّاً فلا تنسوها أبداًا!». ولم أنسَها، وهذا واضحٌ جليّ. لكنّ المشهد الذي قصصته للتوّ يمكن كثيراً ألّا يكون حدث في المستشفى، وإنّما قد يكون بعد ذلك كثيراً في أيّ حجرة أخرى، وأنّ نونا قد لا تكون مولوداً حديثاً ولا رضيعاً، وإنما طفلة في السنة الثالثة أو الرابعة من العمر. من يدري! وقد حُكي لي أنّ الأمر يمكن أن يكون ذكرى زائفة. وأنّ ذاكرتنا الخادعة ملأى بالذكريات الزائفة. وأكّدوا لي أيضاً أن بعض المِيْزات -«هكذا يسمّونها ميزات»-، لا تُقدّر في العادة في أوقاتها الأولى. كلّ ذلك، إضافة إلى أني كنت صغيرة جدّاً، فلا أتذكّر، جعلني أميل إلى التفكير في أنّ الأمر في الواقع، يتعلّق بذكرى مُختلَقة. أو بشيء أكثر نعومة. شيء «مُحضَّرٌ» - سيقول لي «من أنا به مُعجبة». لأنّ حياتي كانت مختلفة جدّاً قبل أن تأتي نونا إلى الدنيا. وأنا لا أتذكّرها جيّداً، إلّا أنّها كانت مختلفة. ولديّ فائض من الأسباب حتّى أظنّ أنّها كانت أفضل، بل أفضل كثيراً. لكنّ نونا وُلدت فتغيّرت الأشياء إلى الأبد. ولهذا السبب يقيناً تعوّدت أن أحدّد كلمات أمي في اليوم ذاته

الذي جاءت فيه إلى الدنيا. وأنا وُلدت ذلك اليومَ على حياة جديدة. حياتي مع نونا.

والحقيقة هي أنّي ربّما كنت أُفضّل أخاً؛ لكن، لم يكلّفني جهداً كبيراً أن أتقبّل نونا. في صغرها كانت تشبه دُمية. كان جلدها ناعماً جدّاً، وعيناها صغيرتين، وشفتاها غليظتين. وحينما تنام وتختفي عيناها مشكّلتين خطّاً، تفتح فمها وتبقيهِ هكذا مدّة طويلة، وكأنّها لا تستطيع أن تُطبقه، أو أنّها تُوشك أن تقول لنا شيئاً، هي التي كانت ما تزال لا تعرف الكلام، وأنّها ستتأخّر أكثر مما هو معقول لتلفظ كلمة واحدة. أمّا أنا فكان يعجبني فمها اللحيم جدّاً والكبير جدّاً. وكان يعجب جدّتي أيضاً. «لها شفتا بريجيت باردو»، قالت ذات يوم وهي إلى جانب السرير. ثمّ بيّنت لي: «بريجيت نجمة سينمائية من عصري. هي فنانة فرنسية». وكانت الجدّة مرحة جدّاً. وتحبّ أن تظلّ إلى الجانب المُحبّب في الأشياء. لذلك هزّت رأسها باسمة لمّا أخذت نونا بعد ذلك تتكلّم أخيراً، ولاحظنا أنّها تجرّ حروف الراء R بصوت أخنّ. «هي مثل بريجيت» قالت حينئذٍ. وكانت ثقتها والبسمة التي لا تفارق شفتيها ما جعلني، على الأرجح، أصدّقها بكلّ إيمان وأرتكب أوّل حماقة في حياتي. ففي ذلك المساء حكيتُ في المدرسة بفخر أنّ لي أختاً فرنسيّة ومميّزة. وحكيت ذلك مرّات عدّة: حكيته في الصّف، وفي الفرصة، وفي الحافلة المدرسيّة. وأفرطت في الإعجاب بنفسي يقيناً. لكنّ زميلاتي جئن بعد أيّام من ذلك، إلى بيتنا لنلعب. وسألن عنها، فناديتها. وما إنْ تمعّنتُ في وجوههنّ سريعاً حتّى أدركت فجأة أموراً عدّة. فعلمت أوّلاً أن نونا لم تكن فرنسية، وخاصة أن كلمة مميّزة ما كانت تعني بالضرورة شيئاً حسناً جدّاً.

***

الفرق بيني وبين نونا ثلاث سنوات تقريباً. وإلى أن بلغت الرابعة من عمرها كنّا نلعب وننام معاً. لكنّ شيئاً ما حدث لكي تتبدّل الأدوار، فتحوّلتُ أنا إلى الأخت الصغرى. وأخذت نونا تشخر، وتأكل كثيراً، بل تلتهم الطعام التهاماً، فوُضع لها نظامٌ غذائيّ. لكنّها كانت تهاجم الثلّاجة في الليالي وتجتاحها. وكانت تخزّن أيضاً مؤناً في حجرتها الجديدة في نوع من مستودع مخفيّ لم نستطع اكتشافه قطّ مهما نبحث عنه ونبحث. وعلى الرغم من أنّها تمضغ كلّ الوقت وتبتلع أطعمة من غير حساب، فما كانت مع ذلك، تنمو في العرض كما خشي والدي، وإنّما صارت في الوقت ذاته تفوقني طولاً. وهذا لم يعجبني؛ وما كان ليعجب أحداً في مثل وضعي بسبب عاقبته المباشرة بوجه خاصّ. وذلك بتحوّلي فجأة إلى أختٍ صغرى. أتحوّل إلى وريثتها. وبدءاً من ذلك الوقت كان الثوب الذي يصبح قصيراً أو ضيّقاً عليها، يمضي فيصبح ثوباً لي. وهذا مخجل.

أمّا «من أنا به معجبة»، فيقول لي إنّ والديّ في هذه النقطة مخطئان (ربما سأتكلّم في وقت لاحق عمّن أنا به معجبة). لئن تكن الأزمنة لم تكن أزمنة للتبذير، ولئن يكن التوارث بين الإخوة عادةً مألوفة في العائلات، فربّما وجب عليهما أن يأخذا سنّي بالاعتبار. ومرّة أخرى، لم تُعوزهما الحجّة لذلك. فبعد كلّ شيء كنت أنا طفلة أيضاً. طفلة كانت تحمي أختها إلى أن تغيّر كل شيء. لأنّ الأمر لم يكن فقط أنّ كلتينا تنام الآن وحدها وفي حجرتها، ولا الكيلوغرامات الفائضة عن نونا ولا طولها. وإنّما كنت أفكّر أحياناً (ثم أنزع الفكرة من رأسي) في أن نونا أصبحت سمينة عن قصد، لكي تجعل مسافة بيننا، وتتقدّمني أو تسخر منّي. لأن التغيّرات كلّها تصادفت في وقت واحد: الحجرة الجديدة، والأكل بلا هوادة، والشخير في الليل والانغلاق على نفسها. وانصبّ ذلك كلّه فجأةً، من غير أن يُتاح

لي وقتٌ لأستوعبه. والأسوأ من ذلك أنّها جعلت من حجرتها شيئاً فشيئاً عالماً، وكففتُ عن أن يكون لي أدنى تقدير عندها. بل تحوّلتُ إلى غريبة وإلى عقبة. «لا تدخلي حجرتي من غير أن تقرعي الباب!»، قالت ذات مرّة. «ولا يخطر ببالك!»، قالت ذلك بنبرتها المميّزة وعجزها عن لفظ حرف R. «No entrggges»، و«Ni se te ocurggga»(*). ولذا فإن حاجتها كانت ماسّة لدرجة أنها جعلت الأمر الذي تصدره جليّاً، فما أزعجت نفسها -في هذه المناسبة- لكي تُخفي عيبها. لأنّ نونا لم تقل قطّ «traje = بدلة» مثلاً، وإنما «vestido = ثوب». ولا تقول «Edredón = لحاف» أيضاً، وإنما «colcha»، وما كانت كلمتا «pradera» و«prado» تندرجان في مفرداتها، وإنّما على العكس: «campo = حقل، ريف». و«hierba = عشب»، أو «césped = عشب الحديقة»... وكانت ذخيرتها من الكلمات البديلة هامّة. وهو برهان آخر على أن أختي يقظة جدّاً دائماً تحسّباً من ألّا تكون واضحة. أو أنّها «مميّزة»، على قول أمّي.

وكانت أمّي تقف دائماً إلى جانبها. وهي أيضاً تقرع باب حجرة نونا قبل أن تدخل، على الرغم من كونها من تكون. وكانت تُقنعها أنّها لا يمكن لها أن تُقفل على نفسها بالمفتاح، وأنّ الخادمة كريسبي سوف تدخل حجرتها مرّة واحدة في اليوم، سواء أكانت في البيت أم لم تكن، لكي ترتّب السرير وتنظّفه. وما كان بيدِ نونا وسيلة إلّا أن تقبل، لكن، ما دامت قادرة على أن تنجز هذه المهامَّ بنفسها، فإن الخادمة تدخل مخدعها مرّة واحدة كلّ أسبوع، فتعمل عمل نظافة عامّة. وإذا كانت نونا ذلك اليوم في البيت فإنّها تنتظر في الممرّ بصبرٍ جالسةً على مقعد. وإذا كانت في المدرسة، فإنّ

(*) العبارتان هما: No entres و Ni se te ocurra، وهنا توضح كيف تلفظ نونا حرف الراء فيهما. (م).

أوّل شيء تصنعه عند عودتها، هو الانزواء في حجرتها. وأخمّن أنها كانت تتصفّح مجلّة، وتتحقّق من أنّ أشياءها هي في الوضع ذاته الذي تركتها فيه. إنّي أخمّن. فكلّ ما يحدث داخل المخدع كان تخميناً. وكنت في الغالب أقرع الباب ببراجم أصابعي وأدفعه في الوقت ذاته تقريباً. وكان الشيء الوحيد الذي يدهشني هو وجه نونا المتبدّل، نونا تائهة أو حالمة، وكأنّها ليست هنا في حجرتها، وإنّما هي على بعد آلاف الكيلومترات أو أكثر. أو على كوكب آخر. هي وإن عادت إلى وضعها السابق في الحال ورفّت بعينيها الصغيرتين، لكنّي اكتشفت في ثوانٍ معدودات أنّها بعيدة، وبعيدة جدّاً، في هذا العالم السرّي الذي لا تريد أن تتقاسمه. ثمّ تهبط. ولقد اكتسبتْ ممارسة الهبوط، بالتخلّي عن أفكارها والقبول بتدنيس دخيلٍ منذ لحظات معبدَها والتظاهر كأنّ شيئاً لم يكن. كانت تموّه.

«دعيها بسلام!» -قال لي أبي ذات يوم- «إنّها سعيدة في حجرتها ومعها أشياؤها... لا تزعجيها!».

ولم يكن لي سبيل إلّا أن أسكت. لأنّي علمت ما سيأتي بعدُ. إنها المعزوفة الدائمة. إنّها لائحة فضائل نونا وقواعد سلوكها التي عليّ أن أتبعها حرفيّاً لكي أسلك سلوك أخت مثاليّة. إنّه الصبر والتقدير والحنان... إضافة إلى الجملة الأخيرة المعروفة في نهاية المعزوفة المخيفة. إنّه التذكار الذي تجهد أمي لتجعله ينساب مع ابتسامة: «بعد كلّ شيء، أنت المسؤولة عن وجودها!».

وإنّي أعلم الآن أنّ الأمر لم يكن كذلك. إنّها محض مصادفة. لكنّهما جهدا على أن أصدّقها. وبعد حين من الوقت حصلا على ذلك. وشعرت بالفخر. وقصصت على زميلاتي ما كانا قصّاه عليّ ممّا قمت به، والذي نسيته تقريباً. قصصتُ ذلك مرّة بعد أخرى. وكنت أقصّه دائماً. إذْ أخذاني

ذات يوم إلى كنيسة، فرأيت تمثالاً لعذراء جميلة جداً ومعها طفلٌ بين ذراعيها. فضممت يديّ فوراً وشرعت أصلّي، وصنعت ما يصنعه الكبار ويداي مضمومتان وصوتي خفيض جدّاً. ولمّا سألاني بعد ذلك: «ماذا طلبت من العذراء؟»، أجبت بوضوح: «أخاً صغيراً!». نعم، هذا ما أتذكّره جيدّاً. أو خيراً من ذلك، أتذكّر عينَيْ أمّي الحانيتين وعناقها الحارّ وكلماتها أيضاً: «إذاً، لن أستغرب أن تستجيب العذراء لك!». وقد استجابت. لكن، لم يأتِ طفلٌ صغير وإنّما نونا. وذكّرتني أمّي يوماً بعد يوم أنّ نونا، إنْ كانت هنا، فذلك لأنّي طلبتها. «مصادفة سعيدة لكي تتجنّبي الغيرة»، قال لي ذات يوم من أنا به معجبة. «ولتتورّطي في تربيتها». حماقات! فأنا لم أشعر بالغيرة من أختي قطّ. بل على العكس. فمنذ صغرها ولمّا كانت تشبه دمية، قضيت ساعات وساعاتٍ وجدّتي قرب السرير ناظرةً إليها كيف تنام. بالمقابل، قد يكون على حقّ في العبارة الأخرى. لأني حاولت أن أربّيها، وإن لم تقبل هي ذلك. لم تقبل ذلك منذ اللحظة التي نمَتْ فيها فجأةً ذلك النموَّ السريع في الطول والعرض وتحوّلتُ أنا إلى وريثة لها. أحسبني أحياناً أنّي أكنّ لها ضغناً من أجل كلّ ما حدث لي حينئذٍ، وبسبب سخرية زميلاتي لمّا كنّ يَرينَني لابسةً ثوب نونا، ويرين نونا في المقابل تستعرض بزّاتٍ جديدة. ذلك كان أحياناً فقط، لأني كنت من فوري أنزعه أيضاً من رأسي. وإذا لم يُنزع كليّاً أبيّن ذلك له، لمن «أنا به معجبة».

***

من أنا به معجَبة له اسمٌ مثل كلّ الناس، ولكنّي أفضّل أن أسمّيه هكذا: «من أنا به معجبة». أوّلاً وأخيراً لا أقوم إلا باتّباع العادة العائلية. ففي هذا البيت نسمّي الأشياء على طريقتنا. ولا أعرف من بدأ ذلك. لكن، هناك

كثيرٌ من الكلمات لا تُستعمل وكلمات أخرى أكثر سوءاً، محظورة. وذات مرّة داعبَتْ إحدى السيّدات وهي صديقة العائلة شعر نونا وانتظرتْ إلى أن انصرفت من البهو، فخطر لها أن تُطلق كلمة. ولم تظهر في البيت مرّة أخرى. فقد حدجتها أمّي بنظرة حارقة وطلبت من الخادمة أن ترافقها حتّى الباب. وما كنّا نريد شيئاً من الكنى الأجنبية ولا أسماء أمراض ولا كوارث ولا وجوهاً من وجوه الحزن، أو جملاً تُلفظ بنصف صوت. فهنا كلّ شيء مُميّز أأعجبكم ذلك أم لم يعجبكم. مثل نونا ذاتها. وما دام الأمر متعلّقاً بطفلة مميّزة فقد وضعناها في مدرسة متميّزة أيضاً. فالأشخاص المميّزون يتمتّعون بميزات. وقد سبق أنْ قلت ذلك. ميزات. هي كلمة أعرفها منذ الصغر. وقد فهمتها بشكل أفضل ما إن عرفت أن أستعمل المعجم. لأنّ الميزات التي تعني إلى هذا الحدّ أو ذاك ما تعنيه «خصائص» و«تفرّدات» أو «نوادر»، هي خير ما يناسب الأشخاص المميّزين. وما كان لنونا أن تكون بشكلٍ آخر. ويكون المرء مميّزاً إذا تمتّع بميزات. أو أنه يتمتّع بميزات لأنه مميّز. إنّه الأفعى التي تعضّ ذيلها. أو سمكة الحساس. ففي يوم من الأيام كانت الخادمة تحضّر للغداء سمكات تعضّ ذيولها. ولبثتُ مدّة وأنا أنظر إليها في المطبخ. وبدا لي أنّه هنا يكمن فهم العالم. فهم عالمٍ ما على الأقلّ. فنونا هي السمكة، وحجرتها هي الحلقة التي تشكّلها عند وضع طرف ذيلها ذاته في فمها. ولا تُفهَم إحداهما من غير الأخرى. وبالعكس. وتنبّهت إلى العناية التي كانت كريسبي تُدخل فيها الذيول بين الأسنان، والمهارة التي تضغط بها الرؤوس لتطمئنّ إلى أنّها لن تفلت. ثمّ تغمرها بالدقيق وتقليها اثنتين اثنتين (لكيلا تتصادم)، وتصبّها على ورقٍ ماصّ، وتصفّها في النهاية كلّها معاً في قصعة من الخزف، مزيّنة بدوائر من

الليمون وأغصان البقدونس. ولبثت مدّة أخرى طويلة في المطبخ مُتأمّلة. لكنّ السمكات كان يجب أن تؤكل حال طهيها سواء أعضّت ذيولها أم لم تعضّ. وهذا ما فعلناه، فأكلناها قبل أن تبرد. جلست إلى المائدة في غرفة الطعام وأنا ما أزال أفكّر في نونا. أفكّر في أن أختي كالتنّين الذي يحمي كنزاً. يطوّق ملاذه مهما يكن الوقت طويلاً ويقيه من نظرات الآخرين. وفكّرت أيضاً أنّي إن استطعت أنْ أخفّف من ضغط الأسنان على الذيل، فسوف ينشأ في الحال فراغٌ، أو باب أو شبّاك أستطيع الدخول منه إلى حجرتها المحظورة وأكشف أسرارها. كان أبواي يأكلان بشهيّة كبيرة. ولم يبقَ في القصعة غير بعض دوائر الليمون وأغصان البقدونس التي استُعملت زينةً. فلم أقل لهما شيئاً مما كنت آخذةً في التفكير فيه. وذلك تحفّظاً منّي، وربّما صنعت لهما حسنة أو ربّما لا. لكنّي، نعم، سأقصّ ذلك على من أنا به مُعجبة، بأن والديّ قد التهما من غير أن يعرفا ابنتهما (هذه نكتة لا أكثر؛ وهي فكاهة)، وعن الشبه التي تمثّله في رأيي سمكة حساس وأختي (وهذا هو الجانب الجدّيّ في الأمر). فأنا أستطيع أن أتحدّث إلى من أنا به معجبة عن كلّ شيء تقريباً. وهذا يعجبني. ولهذا السبب، يجب أن أحميه وأحمي نفسي. فلا أريد أن يتلصّص أحد على أشيائي، ولا أن يعرف اسمه الحقيقي ويأخذ بحبْك الخيوط ويزعجني. وبذلك أحتفظ به سرّاً كما أحتفظ بصورته. فقد خطر لي ذات يوم من الأيام أن أصوّره في المدرسة بينما نتحدّث في القاعة الصغيرة التي تكون أحياناً عيادة للتوجيه والإرشاد. فاستأذنته بالطبع؛ لكنّي لم أقل له الحقيقة. فقد خجلت من ذلك. لم أقل له إنّي أراه جميلاً جدّاً بسترته الزرقاء السماوية، وإني أموت لكي أبقيه إلى الأبد في هاتفي الخليوي. بل إنّي على العكس من ذلك، بيّنت له أنّي بصدد عمل في نهاية الفصل الدراسي وأحتاج إلى صورة ظلّيّة

بإضاءة خلفية. نهض باسماً واستند إلى النافذة، فأطلقتُ العدسة الشيئيّة. ولم تظهر الصورة الظلّيّة بالطبع. وإنّما ظهر هو، ذاك الذي كنت به معجبة. أليس لنونا أسرارُها الكبرى؟ إذاً، أنا لي أيضاً أسرارٌ كبرى.

***

عن المدرسة المميّزة لم نكن نعرف شيئاً. على الأقلّ أنا. ونونا تحكي شيئاً يسيراً جدّاً عمّا تعمله هناك. لكن، يبدو لي أنّها غير معجبة بها كثيراً. وكان وجهها، كلّما عادت من المدرسة، يتهلّل عند وصولها إلى باب حجرتها، وتتنفّس بعمق، فتدخلها ولا تخرج منها حتى ساعة العشاء. أيُّ شيء في هذه الحجرة التي تجد فيها نفسها على راحتها؟ وكنت في بعض الأحيان، أُلصق أذني من سريري بالحائط وأنتظر صامتة مدّة طويلة. وكانت نونا إضافة إلى الشخير تحلم بصوت عالٍ وتتكلّم وحدها. وأخيراً، ما كانت تكفّ عن الضحك، وكأنّما تخطر لها أشياء مسلّية جدّاً وتقضي وقتها بخير متعة. وأنا أعرف منذ مدّة أنّ لها صديقاً، أو ربّما صديقة، فهذا الأمر غير واضح لي. وقالت لي أمّي ذات يوم إنّهما سمعاها تتكلّم وحدها. وقد يكون الصديق صديقاً غير منظور، الصديق المُتخيّل الذي يخترعه أحياناً الأطفال الذين يشعرون بالوحدة، كالأطفال الوحيدين مثلاً، أو أولئك الذين لهم إخوة أكبر منهم كثيراً فلا يرغبون في اللعب. وهذا ليس سيّئاً، على رأي أمّي دائماً. بل على العكس. هو يشجّع على الإبداع، حتى إنّنا وجدنا حالاتٍ من الفنّانين ذوي الشهرة اخترعوا هم أيضاً في صغرهم أصدقاء.

«ليس سيّئاً، لا!»، كانت أمّي تكرّر وكأنّما بغاية أن تقنع نفسها.

إذْ يبدو لي أحياناً أنّها هي أيضاً ليست متيقّنة كثيراً، وتسأل نفسها كما

أفعل أنا: لأيّ شياطين تحتاج نونا إلى أن تختلق صديقاً؟! فهي ليست وحيدة، وها أنا ذا أختها، وإذا كانت لا تلعبُ معي فذلك لأنّها لا تريد. وفوق ذلك، ها هي ذي تتحوّل إلى الأخت الكبرى بخطا عملاق. والآن أصبحتُ لا أرث بزّاتها. لقد أدركت أمّي منذ سنين خطأها. ولئن كانت هي أسرع نموّاً منّي وما تزال أطول، فقد أصبحت كلتانا تلبس اليوم على طريقتها، حتّى إنّنا لا نبدو أختين. فقد قالت لي ذات يوم بشكل قاطع إحدى زميلاتي في المدرسة: «أنتما لا تشبه إحداكما الأخرى في شيء». ولا أدري لِمَ شعرت بالسرور. ثمّ بدا لي ذلك الشعور سيّئاً. لكنّ الحقيقة هي أنّ نونا مميّزة، ومميّزة جداً، وتتصرّف وكأنّها غاضبة عليّ. وكأنّما لا تريد أن تُشركني في شيء. وكان ذلك غمّاً. وأفكّر أحياناً بينما أسمعها تضحك في الجانب الآخر من الجدار أن حياتها تبدو في الأساس باعثة على الحسد. أمّا أنا فلا أضحك ضحكها ولا أتمتّع بوقتي في حجرتي. لكن، هناك أكثر من ذلك. إذْ إنّي لبثت ذات ليلة مدّة أطول ممّا هو معتاد وأذني لاصقة بالجدار، فاكتشفت شيئاً. نونا كانت تتكلّم لكنّها لم تكن وحدها. وأصغيت بانتباه أكبر مما سبق. فميّزت أصواتاً مختلفة وإن لم أستطع أن أفهم ما يُقال، وأشكالاً من الضحك عدّة. وكانت الضحكات كثيرة. وفكّرت في لحظة أنّ نونا ممثّلة كبيرة، وتعرف أن تقلّد أصواتَ الآخرين. ثمّ لم أفكّر بعد ذلك في شيء ونمت. ومع ذلك، ما إن استيقظت في اليوم التالي حتّى تذكّرتُ ما اكتشفته. ووجدت له تفسيراً مُرْضياً. نونا ليس لها صديق واحد مُتخيّل، وإنّما مجموعة أصدقاء! نعم لنونا عصابة كانت تُزجي معها الوقت على أعظم ما يكون، ولذلك ما كانت تحتاج إليّ في شيء. لا تحتاج إليّ ولا إلى أحد. وفكّرت في أن أقصّ ذلك على أمّي.

لكن، لم يُتَح لي الوقت. فذلك الصباح كان صباح أحد. فذهبنا كما كنّا نفعل في آحاد كثيرة لزيارة بعض الأعمام الذين يقطنون الريف. فتشمّسنا وسبحنا في المسبح، لكن، هناك وهناك تحديداً في المسبح، أخذت أشعر بالذعر. إذْ بينما كنّا جميعاً ننشّف أنفسنا بالمناشف، ظلّت نونا وحيدة في الماء. كانت نونا تضحك وترشق أصدقاءها المتخيّلين بالماء، وتغوص وتصيح بهم أن يدَعوها بسلام. وكانت تضحك وتضحك وتضحك. ومع ذلك، تنبّهت ذلك الأحد إلى شيء غريب. بل هو أكثر من غريب، إنّه مستحيل. فقد كان الماء يضطرب بحركة واحدة بطول المسبح وعرضه وكأنّه مملوء بالناس فعلاً. وما هو غير قليل -وهنا أُصبتُ بذعرٍ كامل- حتى طفت فجأة نونا التي لم تكفّ عن الصياح والضحك، على طول سطح الماء. وصاحت ضاحكة: «Brgggutos = همج». «أنتم همج». ولم يدم ظهورها أكثر من ثوانٍ معدودات. إذْ سرعان ما فقدت توازنها وسقطت بشكلٍ ثقيل في الماء. لكنّي أدركت فوراً، أنّ تلك المأثرة ما كانت لتستطيع أن تنجزها هي وحدها. وكان ذلك كأنّي أرى كومةً من الأذرع والأيدي ترفع أختي من قدميها. أذرع وأيدٍ وأقدام خاضت في الماء من جديد، بعد أن تمّت النكتة، في كلّ الاتجاهات الممكنة.

«إنّهم موجودون». قلت لنفسي مضطربة أشدّ الاضطراب. «أصدقاؤها موجودون حقّاً». ونويت أن أصرخ لكني لم أستطعِ الصراخ. وتقاطعت نظرتي مع عيني نونا الصينيّتين؛ ورأيت في الحال كيف كانت ترفع يدها بشكل آليّ ولبثتْ عابسةً جدّاً كحالها لمّا فاجأتها في حجرتها بعيداً عن هنا جدّاً، ولم تكن لها وسيلة إلّا أن تحطّ على الأرض وتتظاهر أنها لم تُكتشف. ولا أعرف بشكل جيّد جدّاً ما أرادت أن تشير إليه بحركتها الآليّة،

لكنّي، نعم، أستطيع أن أغامر فأشير إلى من كانت توجّهها. واستعاد الماء شيئاً فشيئاً هدوءه ولم يبقَ فيه غير أثر، أثر حركات نونا التي ظلّت تخبط في الماء إبّان مدّة ما، وكأنّ شيئاً لم يحدث.

***

لمّا عدت إلى البيت مساءً، انتظرت اللحظة المناسبة لأقترب من والديّ. أطبق أبي الصحيفة التي كان قد بدأ بقراءتها وخرج من البهو. وأصغتْ إليّ أمّي في البدء باهتمام.

– عصابة، تقولين؟ حسن، ليس في ذلك ما يدعو إلى السوء!

فتشجّعت حينئذ. إذ إنّ من الصعب أن أبيّن لها ما اكتشفته، فقد كانت تعوزني الكلمات. ولمّا اعتقدت أنّي وجدتها، بدت لي أنا نفسي زائفة ومن غير معنى. لكنّي تسلّحتُ بالشجاعة. لأن الأمر خطير جدّاً حتّى لا أخفيه.

– نعم، هي عصابة... عصابة حقيقيّة. إنهم كثيرون ونحن لا نراهم... لكنّهم هناك!

«بالطبع» –قالت باسمة– «أليست هذه مهمّة الأصدقاء المتخيّلين؟ ثمّ إن الفتيات يكبرن ويصبحن راشدات، ويتلو الأصدقاءَ المُتخيّلين أصدقاءٌ حقيقيّون. وهذا ما يحدث دائماً».

وأدركت أن الأمر سيبدو لي معقدّاً أكثر مما كنت أخشاه كثيراً، على شكلٍ بدأت فيه من البداية. من الأصوات التي انطلقت من حجرتها الليلة الفائتة، والقصف الذي قامت به هي وأصدقاؤها في المسبح ذلك الصباح ذاته. ولمّا وصلت إلى اللحظة التي رُفعتْ فيها نونا خارج الماء، أعادتني إلى معاناة ما سبق. إذْ بدت الكلمات لي زائفة، فلم أعرف ماذا أقول. ولبثت صامتة.

«ثمّ...؟» - سألَتْ فحسب. لكن، خامرني إحساس أنّها أخذت تفقد صبرها.

«هم كانوا يدفعونها إلى فوقُ» -قلت فجأة. ولقد دُهشت أنا نفسي من قراري- «لم أرَ أياديهم لأنّها غير منظورة. لكنّي نعم، رأيت عقبي نونا فوق الماء. وكأنها شبح أو عذراء أو قدّيسة... وإن لم يكن الأمر كذلك. كانوا هم أصدقاءها... أتفهمينني الآن؟!».

هزّت أمّي رأسها ونهزت بكتفيها في آن واحد. وكان جوابها: «نعم» و«لا»، في آنٍ واحد. ولم تكن لي وسيلة إلّا أنْ أصل حتى النهاية، وأقصّ عليها ما أدركته فجأة وأنا مشتملة بالمنشفة قرب مسبح الأعمام. وقد يكون الشرح حماقة في نظر كثيرين. لكن، ليس في نظري أنا. فلأمرٍ ما أخذتُ أرتعد ذلك الصباح. ولم يكن بسبب البرد.

- قد يكونون ناساً من كوكب آخر. كائنات لا نراها. لكنّ نونا أو فتيات مميّزات مثل نونا يرينها... يمكن أن يكونوا موتى أيضاً. أطفال ماتوا منذ مدّةٍ ما وعادوا إلى الدنيا ليلعبوا مع نونا.

وهنا توقّفت. وكان عليّ أن أتوقّف بالقوّة. إذْ نظرت إليّ أمّي بغضب. ولم أجدها قطّ غاضبة على هذا الشكل.

«حتى هنا!» -قالت غاضبة غاية الغضب- «أصبحتُ لا أطيق أكثر من ذلك! خيالك صار يتعبني».

وتركتني وحيدة في البهو. في المكان الذي هُرعتُ إليه تحديداً طلباً للمساعدة. ولأقصّ اكتشافي، ولأتقاسمه. ثم سمعتها وهي تحاور أبي من بعيد. فهما يتجادلان أحياناً، ولكن، ليس كثيراً. لأنّ أمّي تقضي نهارها وهي تقرأ كتباً ومزيداً من الكتب، وبحوثاً، بحوثاً في علم النفس بوجه خاص.

أمّا هو فلا يهتمّ إلّا بالصحيفة والرياضة. لكنّهما كانا على وفاق جيّد، بل أكثر من جيّد. وهذا أوّل سؤال سألنيه من أنا به معجبة، في بدايات الفصل الدراسي. هل أبواك متوافقان؟ نعم، متوافقان بشكل جيّد جدّاً. وأحسبني أضفت: وإن لم يكونا على وفاق دائماً. وذلك اليوم كان من هذه الأيام. إذْ لم يكونا فيه على وفاق. بل تجادلا. لكنني لم أحاول أن أستمع لِمَا كانا يقولان. وشعرت بأنّي منقبضة ومتألّمة. فلا شيء أسوأ من قولك الحقيقة. ومن ألّا يصدّقك الناس. أو أن يسخروا منك، أو ألّا يريدوا أن يستمعوا لك كما حدث لي منذ قليل. لذلك هُرعت إلى حجرة الجدّة، جدتي الحبيبة. كانت جدّ مرحة كعادتها دائماً وجدّ متفهّمة، جالسةً على كرسيّها الهزّاز واستقبلتني بابتسامتها الدائمة.

«جدّتي!»، صرخت.

وألقيت بنفسي بين ذراعيها. وحدّثتها عن الأصوات التي كنت أسمعها عبر الجدار، وعن المياه المتحرّكة في المسبح، وعن تقاطع النظرات، خاصّة عن هذا، عن تقاطع النظرات. نظرات عينيّ اللتين جعلهما الذعر مستديرتين وعيني نونا الصغيرتين، التي فهمتْ سريعاً ما الذي تحقّقتُ منه للتوّ، وما اكتشفته. ولذلك حرّكتْ يدها في ردّة فعل «عفوية»، وكأنها تطرد ذبابات أو تنزع شيئاً غيرَ مُستحبّ من فوقها، أو تقول: «حسن! كفى! توقّفن الآن!» حركة فيها كثير من الأمر والإنذار القاطع، حركة شخص تعوّد أنْ يأمر وأنْ يُطاع. وهذا ما حصلتْ عليه. فكفّت عن الخوض في الماء تلك الأشباحُ والكائنات من كوكب آخر، أو الأطفال الأموات. وسرعان ما هدأت المياه في المسبح. وزال الحصار عن نونا.

«هي ملكةُ عالم لا نراه نحن!»، صرختُ أيضاً.

فداعبت الجدّة شعري من غير أن تتخلّى عن الابتسام. وضعت رأسي بين ركبتيها وأخذنا نتأرجح معاً بصمت. والجدّة لا تتكلّم. فما كانت تستطيع الكلام منذ مدّة بعيدة. ولا تستطيع أن تتحرّك. لكنّها لم تفقد الابتسامة بسبب ذلك. وأنا أحبّها كما لا أحبّ أحداً مثلها. وفي حضنها أشعر بالحماية. ربّما لهذا السبب، ضممتُها إليّ ذلك اليوم بقوّة حتى أخذ الكرسيّ الهزّاز يصرّ أو يزمجر، أو يشكو وكأنّ الجدة والكرسيَّ الهزّاز وأنا قد ذبنا فجأة في شخصٍ واحد وشكوى واحدة. لأنّ ذهاب الكرسي وإيابه على الأرضيّة الخشبيّة لم يكفّ عن جرّ اسمٍ وتكراره: نووونا، نووونا، نووونا! إنه الاسم ذاته دائماً: نونا.

وفي اليوم التالي فكّرت في السمكات. تلك السمكات. تلك السمكات التي تعضّ ذيولها والتي حضّرتها كريسبي منذ أيامٍ خلت باهتمام كبير من أجل الغداء. وفكّرت في كلّ ما أوحت به إليّ حينئذٍ، وخاصة التفكير في أن أجد فجوة أو شبّاكاً لأدخل الحجرة المحظورة. لكنّني أرى الآن أنْ لا حاجة بي إلى تخفيف ضغط الأسنان على الذيل للحصول على فراغٍ حرّ وكسر الحلقة. لا حاجة بي إلى شيء. فإذا كانت السمكة نونا، ونونا التنّين الذي يحرس الكنز، فالأمر يقتضي الهزءَ بحراسته ودخول المعبد بأكبر هدوء في الدنيا. وفكّرت أيضاً ما إن كان ذلك لم يخطر لي من قبلُ، فذلك لأنّه لم يبدُ لي سهلاً تخيُّلُ الحجرة من غير شاغلتها الدائمة. بالنسبة إليّ كان كأنّما نونا تعيش فيها. وكانت ساعات دوامها في المدرسة تتصادف وساعات دوامي في المدرسة. لذلك فإننا نخرج من البيت عمليّاً معاً، ونعود تقريباً في الوقت عينه، حتّى كلّما كنت في البيت تكون نونا في حجرتها. وهكذا دأبنا كلّ يوم. نحن وإنْ التقينا في الباب أو دخلنا حجرة الاستقبال متشابكتَي

اليدين إلّا أنّ نونا كانت بعد ثوانٍ قليلة تنزوي في إقطاعتها. لكن، حانت اللحظة التي تغيّرت فيها الأشياء، ذلك اليوم نفسه. وكان الأمر أنْ أنتظر إلى أنْ يذهب التنّين مثل كلّ الأصباح إلى المدرسة، وأبي إلى مكتبه وأمّي إلى المكتبة العامّة، وتُخرج كريسبي الجدّة في نزهة. حينئذٍ استدرت وأنا في طريقي إلى المدرسة، نصف استدارة وقفلت راجعة إلى البيت.

وبدا لي الأمر في البدء غريباً. هو أن أدخل من غير أنْ أقرع الباب. فقد تعوّدنا كلّنا في البيت أن ندقّ الباب ببراجمنا، وإنّ كنّا ندفعه حالاً من غير أنْ ننتظر ردّاً، لذلك نفاجِئ نونا بشكلٍ لا يتبدّل. نفاجئها وهي شاردة، غارقة في أحلامِها، تائهة في عالم سرّي. لكنّ هذا اليوم مختلف. إذْ ما من أحد يحرس الهيكل. وهكذا دخلت من غير استئذان. وعلى الرغم من أنّ نونا غير موجودة داخله، فقد تنسّمت رائحتها، رائحة غريبة هي خليط من رائحة الأدوية وعطر ماء الكولونيا. إنها رائحة نونا. فتحت الخزانة وتحرّيت الدروج. فلم يدهشني نظامُها ونظافتها، لأني أعرف أنّ ذلك كان الشرط الأوّل كي لا تدخلها كريسبي أكثر ممّا هو متفق عليه. ثمّ جلست على السرير. لقد رتّبته وحدها بشكل عجيب. فالملاءات مبسوطة بشكل تامّ. وكذلك المخدّات والمساند الإسفنجيّة. وما كان غطاء السرير يتدلّى من أيّ زاوية أكثر من المحسوب. ذهبت إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها. وبدت لي الحجرة في ضوء شمس الصباح أكثر نظاماً ونظافةً، بل هي أكثر تجرّداً من الطابع الشخصي وأقلّ شأناً. وسألت نفسي حينئذٍ: ما الذي أبحث عنه ولم أجده؟ لكنّي لم أعرف أن أجيب نفسي.

ولولا رائحة نونا المميّزة التي تغمر الملاءات والأثاث والستائر، لربّما كانت تلك الحجرة حجرة أيّ إنسان مجهول. فلا علامة مميّزة واحدة

ما عدا موقعها، ولا تفصيلَ شخصياً واحداً فيها. ولا شيء يسوّغ رغبتها في المكوث منعزلةً بين جدرانها. ومع ذلك، لم تدُم خيبة أملي طويلاً جدّاً. فقد أخذت أفهم الأمر رويداً رويداً. وتذكّرت أن أختي كانت على طريقتها، ذكيّة، وذكيّة جدّاً. وخطر لي أنّ ما أراه ما هو إلّا ما تريدني هي أن أراه. حجرة تنبعث فيها الحياة فقط حينما تعود صاحبتها من المدرسة، وتشغل موقعها فيها. لأنّ نونا كانت تحمل الحجرة حيثما ذهبت، تحملها ومعها أصدقاؤها، والعصابة التي خاضت في اليوم السابق في المسبح، وقد تكون في هذه اللحظة بكلّ يقين تنتظرها خارج الصفّ محتلّة مقاعد الرواق بصمت، وغير مرئيّة من الآخرين، متلهّفة إلى اللحظة التي تعود فيها إلى البيت وتتحرّر من التزاماتها أو تخفيها. نعم نونا، ملكةُ العصابة، ذكيّةٌ جدّاً. وبيّنتْ لي الحجرةُ الشيء الوحيد الذي تريد أن تبيّنه. وهو لا شيء.

أغلقت النافذة لكي يظلّ كلّ شيء كما كان من ذي قبلُ، وأوشكت أن أنصرف لمّا تنبّهت إلى رفرفة الضوء الصغير في الحاسوب. فاقتربت من المنضدة من غير أن أتمكّن من تصديق ذلك تصديقاً كاملاً. فبدا لي أنّ هذا معجزة. هو أن نونا قطعت عملها في منتصف جلسة، أو بقولٍ أفضل، لم تتذكّر فتغلق الجهاز. ضغطتُ على مفتاح ما، فأضاءت الشاشة. وهنا أصبحت منرفزة. لكن، لا أدري ما إن كان ذلك منذ اللحظة الأولى لإحساسي بأن ما سوف أفعله ليس شيئاً حسناً، أو لشيءٍ ما بعد ذلك، لمّا تنبّهت إلى أنّي قد دخلت قسم: «صوري». إذ إنّ موزاييكَ من الصور الفوتوغرافية والرسوم وُضع في متناول يدي ما إنْ ضغطت على الفأرة. وهذا ما عملته. واخترت أن أرى ذلك كتقدمة. فشاهدت وأنا بين مثارة

الأعصاب ولاهية عرضاً من فنّاني السينما و«الموديلات» والرياضيّين. إلّا أنّهم صغار وكثير منهم مكشوف الصدر وفي بدلة استجمامٍ أو مايوه، وفي بدلة سباحة، أو ملابس لاعب جيمناز أو راقص. وهم جميلون دائماً. وبعضهم فوق ذلك أقوياء وذوو عضل مُبدين بفخر جذوعهم اللامعة أو عضلاتهم المتوتّرة. وهم شُقر وسُمر وبيض وسود وخِلاسيّون. ففي ألبوم نونا يوجد كلّ صنف من الرجال. وما كان يبدو هذا العرض سينتهي أبداً. «يا لأختي!» سمعتني أقول بصوت خفيض. لكنّ وجهي احمرّ في الوقت ذاته تقريباً: غضباً ودهشة وخجلاً. احمرّ وجهي وثبّتُّ الصورة الأخيرة بذهول. لأن هذا الموكب اللامتناهي انتهى بأن ظهر فيه شخصٌ ما كنت آمل أن أجده هنا. وهو أحدٌ ما يقف باسماً قرب نافذة وفي الوضع ذاته في الصورة التي التقطتها له في المدرسة سوى أنه لا يلبس الرداء الأزرق الذي يضاهي عينيه، ولا قميصاً أيضاً ولا برنساً ولا كنزة رياضية... فمن أنا به معجبة كان هنا، على شاشة حاسوب نونا عارياً عرياً كاملاً وباسماً.

وأدركت فوراً بعد الدهشة الطبيعية أنّ نونا شرّيرة إضافة إلى كونها ذكية. وشرّيرة جدّاً.

***

هو له اسم حقيقيّ (كما قلت من قبلُ). اسم كفَّ عن أن يكون سرّاً. فقد كتبَتْه أسفل الصورة بأحرف حمر. وأشارت أيضاً إلى مهنته. إنه عالم نفسيّ. من أنا به معجبة هو الموجّه النفسي في المدرسة. إنه شابّ صغير السنّ قد أنهى دراسته، وله أفكار جديدة حول كيفيّة معالجة مرضاه. وقد عرضنا نحن -بعض الطالبات- أنفسنا طوعاً لكي يستطيع أن يطوّرها ويجرّبها علينا. وبذلك تعلّمنا كلّنا جميعاً أنه لنا ونحن له. وكان يلذّ لي

كثيراً أنْ أقصّ عليه أموراً وأن يستمع لي. وهو يلذّ له أن يستمع لي ويعلّق على أموري. وقد بالغتُ شيئاً قليلاً أكثر من مرّة. إذْ وجب عليّ أن أقول له كلّ شيء. كنتُ أبالغ بفظاظة نونا والصعوبة التي تتبدّى لي أحياناً بأن أكون أختاً كبرى لطفلة مميّزة. وإذا كنت أفعل ذلك، فذلك إرضاءً له. كنّا نلتقي مرّة واحدة في الأسبوع في القاعة الصغيرة التي تصبح أحياناً بمنزلة عيادة استشاريّة. فما إنْ أفتح الباب حتى يستقبلني ببسمة كبيرة. ويسألني فوراً: «كيف تسير الأمور مع أختك؟». وكنت على يقين تقريباً من أنه يكتب كتاباً، كتاباً عنّي أو بالحَرَا، عن عادات الأطفال أو المراهقات من أمثال نونا. هو يعرف كلّ ما يجب علينا أن نتحمّله، والكثير مما يجب أن نضحّي به. لكن، لا يبدو لي أنه يستطيع أن يتخيّل بأيّ شكلٍ، الفِعلة الشنعاء التي خطرت لنونا.

لأنّ الأمر منوط بهذا، بالفعلة الشنعاء. لا أدري متى استطاعت أن تعثر على صورته، الصورة التي أحملها معي دائماً، في الهاتف الخليوي. لكنّ الثابت هو أنّها استغلّت لحظةَ غفلة فسرقتها ووضعتها في ألبومها، وأكبّت بأسوأ نيّة في الدنيا وأجرت عليها رتوشاً. ولو ثبّتُّ النظر عليها جيّداً ووسّعتها لاستطعت أن أعرف تلاعبها في وجه من أنا به معجبة، وفي نافذة قاعة الاستشارة، وفي لصيقة جسم ذي عضل وعارٍ ما كانت تنتمي إليه، وفي العنق الذي تغيّر لونه بشكل ملحوظ، والمكان الصحيح الذي محته من الرداء الأزرق وأبدلت به صورة أخرى. لكنّ هناك شيئاً أسوأ من ذلك وغيرَ مفهوم. كيف تحقّقت من اسمه الحقيقي ومهنته؟ هنا مرّة أخرى خليط من ذكائها (لتحقّقها من الاسم) وشرّها (الكتابة أسفل الصورة). ذلك كأنّما تقول لي: «لا أسرارَ لك بالنسبة إليّ. في هذا البيت

أنا الوحيدة التي يمكن أن يكون لها أسرار». ولمرّة واحدة، ربّما لن تلفظ حروف R بصوتٍ أخنّ، ومن ثَمّ ما كانت لتجد سبباً لتزعج نفسها في البحث عن الكلمات البديلة. كلّ شيء فيها كامل، ويزداد كمالاً، كفكرتها أيضاً في ترك الحاسوب مفتوحاً على قسم «الصور أو الألبوم»، عالمةً أنّي لن أقاوم ذات يوم الإغراء بأن أبحث في أغراضها وأتجسّس عليها. ذات يوم... أو ذلك اليوم نفسه. فكيف استطاعت نونا أن تعرف كلّ شيء؟ انتابني الغضب فجأةً وأنا جالسة إزاء الشاشة على كرسيّها، متنسّمة رائحة الأدوية وعطر ماء الكولونيا. فأبغضتها. أبغضت أختي. وأدركت أنّي أبغضتها دائماً، وأني أخجل من وجودها. وفي الوقت ذاته أحسدها، وأنّي أحبّ أنْ أعرف عصابتها وأشاطرها هذه الأسرار التي تأباها عليّ. وأني لا أتحمّل بعدُ أنْ يصدّقها أبواي، وأن يضعا موضع الشكّ كلّ ما أقصّه. لذلك نهضت وضربت الحاسوب بقوائم الكرسيّ حتّى حطّمت الشاشة. وقلبت الدروج. وألقيت بالثياب على الأرض وخرّبت السرير ودعست الملاءات. وفتحت النافذة من جديد وحطّمت الزجاج. وكان الغضب الذي أشعر به كبيراً حتّى لم ألحظ ضوضاء الباب ولا صرير عجلات كرسيّ الجدّة.

«ماذا حدث هنا، يا مخلوقة؟!»، سمعتُ فجأة.

فالتفتّ فزعة ورأيت كريسبي من غير أن تجرؤ على دخول الحجرة والذعرُ على وجهها. لكن الوقت فات لأخترع أعذاراً أو ألقي بالذنب على ناسٍ من كوكب آخر، أو أحمّل المسؤولية أطفالاً موتى.

«لا شيء» -أجبت باكية- «كانت تستحقّ ذلك».

***

كلّ ذلك حدث منذ هنيهة، لكنها تبدو لي الآن أنّها قرن. فتلفَتَتْ

كريسبي إلى أبوَيّ. ولم يبطئا حتّى ظهرا. وصلا معاً وهما يتجادلان. وكان أبي مستاء، ويقول: «كنتُ أعلم من قبلُ أن هذا يمكن أن يحدث». ويقول أيضاً لو وُضع له علاجٌ في وقته لما اضطُرّ إلى: «الخروج من مكتبه منتصف الصباح!»، فطلبت منه أمّي مرّة بعد أخرى أن يتحلّى بالصبر. لكن، ما إن دخلا الحجرة ورأياني جالسةً على الأرض محاطة بحطام الزجاج، حتّى كانت أميّ تحديداً من فقد الهدوء. فشدّتني من ذراعي وأرغمتني على أن أقف على قدميّ. «هيّا بنا نتحادث محادثة جادّة جدّاً!»، قالت صارخة. قالت ذلك بلهجةٍ غريبة هي مزيجٌ من الغضب والرغبة في البكاء وسحبتني إلى البهو. وهناك جلسنا نحن الثلاثة. أبي وأمي على الصوفا وأنا إزاءهما على مقعد له مقبضان. أبي ما يزال مستاء. وأمّي تتنفّس بقوّة وكأنها تكتسب قوّة لكي تتكلّم.

«لِمَ صنعتِ هذا؟!»، قالت أخيراً.

فهززت كتفيّ. فما كنت أستطيع أن أقول لهما الحقيقة هذه المرّة، وأبيّن لهما أنّ نونا ليست ملائكية جدّاً، كما يظنّان، وأحدّثهما عن مجموعة رفاقها وخاصّة أن أقصّ عليهما كيف تلاعبت بسرّي الوحيد، وأنّها أذلّتني وأذلّته. لكن، لا. فهناك أشياء لا يمكن الكشف عنها للأبوين. فذلك يسبّب ضيقاً كثيراً وخجلاً. وفوق ذلك، لم أكن واثقة بأن يصدّقاني كما كان الحال في المرّة الأولى، وكالعادة دائماً. ولذلك سكتُّ وهززت كتفيّ مرّة أخرى.

«إذا كان لديك شيء لتقوليه، فقوليه الآن!» -تابعت أمّي- «وإلّا...».

ولم تكملْ جملتها. فقد ظلّت تهديداً أصمّ طافياً في الهواء. ومن غير أن أعرف إلامَ تشير، أخذتُ أرتجف. لأنّهما أخذا لتوّهما يتجادلان مرّة أخرى، وبقوّة أكبر من أي مرّة أخرى. وكأنّني لست جالسة أمامهما. إذْ لم

يكونا يتجادلان بهذا الشكل حينما أكون إزاءهما. لذلك لم تكن باليد حيلة إلّا أن أتدخّل. فقلت: «نونا، علاوة على كونها ذكيّة، هي شرّيرة جدّاً».

لئن سبّب لي هذا خجلاً رهيباً، فلم أُتحْ لهما وقتاً ليبديا ردّة فعل، فقصصت عليهما ما فعلته بالصورة الجميلة التي بحوزتي، لمن أنا به معجبة. لقد سرقتها منّي وتلاعبت بها وجعلت لها جسماً عارياً وأدخلتها في زمرة أصدقائها. أضف إلى أنّني لم أسمِّه فقط «من أنا به معجبة» وإنّما ردّدت اسمه الحقيقيّ كي لا يكون هناك لبْس، ولكي يعرفا أنّي أقول الحقيقة. ووعدتهما أيضاً أنّي لن أبيّن له شيئاً مما قد حدث يوم ألتقيه قريباً في قاعة الاستشارات. لكن من الواجب أن يعرفا هما ذلك.

«أتشيرين إلى...؟!»، ولفظ أبي اسم من أنا به معجبة، فوافقت وعيناي مطرقتان بالسجادة. ثمّ توجّه إلى أمّي: «أوَليس هو مرشد الطفلة النفسي؟».

نهضت أمّي وأمسكت برأسي بين يديها. وقالت بأعذب صوت لها: «ما تقصّينه لا معنى له، يا ابنتي! الدكتور عجوز محترم. وهو مشهور».

فنفيت بحركة من رأسي. لكنّها ضغطت عليّ بقوّة أشدّ: «أنتِ اختلقتِ صديقاً».

«صديق آخر!»، زمجر أبي.

– صديق مُتخيّل وشابّ وجميل، أضفيتِ عليه اسم الدكتور الحقيقي ومهنته.

ما كنت أرغب في المناقشة أكثر مما فعلت. فماذا يظنّان؟ أنّ لي أصدقاء مُتخيّلين على غرار نونا؟ لقد أصبحت حائرة جدّاً. فأخرجت الهاتف الخليوي من جيبي وبحثت عن الصورة. لقد محتها نونا إضافة إلى أنّها سرقتها.

«وصلتِ الأمور إلى حدٍّ بعيد جدّاً» -قال أبي. لكنّه ما كان يكلّمني وإنّما يكلّم أمّي- «زدْ على ذلك، إذا كان الأصدقاء المتخيّلون ليسوا مشكلة، وإنّ هذه الألعاب تساعد في الغالب على أن يعرف واحدهم الآخر بشكل أفضل، وإنّ هذه النفوس الفتية والحسّاسة... فها أنت ذي ترين!».

لا أدري ما إن كانت أمّي رأت شيئاً ما لأنّها نظرت إليّ بعينين فارغتين وكأنّها عمياء أو أنّها تائهة في أفكارها ذاتها. لكنّي في تلك اللحظة الدقيقة، أخذت أرى. أرى في الذكرى وأربط جملاً بجملٍ أخرى، وأستعيد أوقاتاً وأعيش مرّة أخرى الخلافات المستمرّة مع أختي وأسمع أمّي وهي تردّد من غير كلل: «بعد كلّ شيء أنت المسؤولة عن وجودها...». إنّها الكلمات ذاتها دائماً. وأنا أقصّ على زميلاتي قصّة أتذكّرها نصف تذكار. قصّة طفلة كانت ذات أحدٍ في الكنيسة تصلّي كالكبار طالبةً من العذراء أخاً، أحداً ما تلعب معه، أحداً ما تعالج معه الوحدة المفروضة، وحدة ابنة وحيدة. لكن، أكان ذلك حقيقة؟ أحدث ذلك بهذا الشكل فعلاً؟ ولِمَ كان وجه أمّي في الذكرى ينظر إليّ بشيء من السخرية وكأنّها لا تصدّق ذلك تصديقاً تامّاً، أو كأنّها بصدد نكتة بيننا نحن، الاثنتين، ولعبة شيطانية؟! والآن أصبحت أسأل نفسي أوّل مرّة عن المغزى الحقيقي لكلماتها. لهذه الكلمات وكلمات أخرى أخذت تنطق بها منذ يوم خلا. عن اتّهام وعن شكوى. «خيالك أخذ يتعبني». وشعرت بقشعريرة وبتيّار كهربائي يهزّني من قدميّ حتى رأسي، تيّار واحد، اثنين، ثلاثة... لا أدري كم من المرّات إلى أن أفقت من حالة تشبه الحلم واعتقدتُ أنّي فهمت. فضغطت على يدي أمّي التي ما تزال تنظر إليّ بعينيَ عمياء. وقلت: «الآن أصبحت أفهم كل شيء. فهمت كلماتك ومخاوفي. وأدرك أنّك ربّما تكونين على حقّ

وأنّ مَن أنا به معجبة قد لا يكون غير صديق متخيّل. لكنّه ليس الصديق الوحيد».

ولاحظت أنّ يديها باردتان، فضغطت عليهما بشكل أشدّ بين يديّ. فقد حانت اللحظة الحاسمة وشعرت بالذعر. وكان عليّ أن أقول: «نونا غير موجودة!» -صرخت أخيراً- «أحقاً يا أمّي أنّ نونا غير موجودة؟».

استردّت عيناها الضوء المفقود، والتهبتا وحرقتاني. وقالت بصوت مُتعب: «دعيك من تحوير الأمور كما تهوين. بالطبع هي موجودة».

وكان أبي غادر البهو لتوّه مطأطئ الرأس. وسرعان ما شعرت بالخوف، بخوفٍ كبير. وكأنّي أجد نفسي وسْط كابوس رهيب. وكأنّني عشت هذا الموقف من قبلِ هذا الصباح. لكنّني ما كنت أتذكّر النهاية. وعلى الأغلب لم تكن له نهاية. والآن أميّ هي من ضغطت على أصابعي حتى أضرّت بي، ذلك كي لا أنصرف، ولكي أسمعها بكلّ انتباهٍ في الدنيا. وقالت جادّة جدّاً: «اقبلي الأمر مرّة واحدة!».

وأضافت في الحال ببطء. ببطء شديد وقد اطمأنّت إلى أنّني لن أهرب ومن غير أن تخفّف الضغط على يدي: «هي الوحيدة الموجودة!».

***

وهذه كانت النهاية. النهاية التي ما كنت أتذكّرها. النهاية التي تلاحقني في الأحلام. إنّها الكابوس الأبدي. ثمّ كانت الأشياء تنتظم عند الاستيقاظ وتعود إلى ما كانت من قبلُ. وهذا ما قلته لنفسي: «اصبري، وانتظري أقلّ ما يكون وسوف ينتهي كلّ شيء!».

قلت ذلك لنفسي منذ هنيهة؛ منذ ثوانٍ معدودات فقط، تبدو لي الآن قرناً. وأردّد ذلك في نفسي من جديد من غير أن أصدّقه كثيراً. لأنّني أعلم

أنّ اليوم يوم مختلف وليس حلماً. وأمّي ما تزال تأسر يدي حتّى غرزت ظفرها فيّ. ولا أدري إنْ عملت ذلك عمداً أو من غير إرادة منها. لكنّي لا أستيقظ، ولا أستطيع أن أستيقظ. فاليوم ليس حلماً. لذلك تحرّرت صفعاً وركلاً من ضغطها وهربت إلى الممرّ. وهناك رأيت الجدّة جالسة على كرسيّها ذي العجلات وابتسامتها التي لا تُمحى على شفتيها. وخمّنت أنّها استمعت ساكنة في مقعدها إلى ما كان يُقال في البهو. ولذلك ولأنّها كانت تجد الجانب المحبوب في الأشياء، انحنيت إلى جانبها ورجوتها: «جدّتي، قولي لي إنْ كانت هي الموجودة الوحيدة... فمن أكون أنا؟ وما اسمي؟».

فحرّكت الجدّة شفتيها. أرادت أن تتكلّم لكنّها لم تستطع. وبإشارة منها دعتني لأتبعها. وجعلت العجلات تدور بيديها ناتئتي العظام. وتوقّفت فجأة وأشارت إلى الباب. وإذْ لم أتحرّك التفتت ونظرت إليّ. إنّها أوّل مرّة أجدها عابسة ومن غير ابتسامة. ووجدت ما لا أنتظر: إنّهما دمعتان تنزلقان صامتتين على وجنتيها. وتنبّهت إلى أنّ الأولى، دمعة الوجنة اليُمنى تجري بسرعة أكبر من سرعة الدمعة الأخرى. ثمّ توقّفت، ثمّ كانت الدمعة اليسرى هي التي استأنفت الجريان فوراً. وحسبتُ نفسي أنّي إزاء مباراة، إزاء سباق خيل. ولا أدري على أيّهما أرسو. فقد تبدّدت دمعة الجهة اليمنى على الجلد واختفت. لكن، جاءها على غير توقّع وبكلّ سرعة دعمٌ من فوقُ. أمّا الدمعة اليسرى فأوشكت أن تبلغ الهدفَ، الذقنَ لمّا تسارعت نهاية الصراع. فجفّفت الجدّة عينيها بمنديل ومرّت به على خدّها. ولبثتُ من غير أن أعرف أيّهما الرابح. لكنّ أصابعها أشارت مرّة أخرى إلى الباب. ففتحته واستنشقت رائحة الأدوية وعطر ماء الكولونيا. وتنبّهت إلى أنّ

الأرض أضحت نظيفة مرّة أخرى، والدروج مغلقة. ولولا الهواء الذي يتسلّل من نافذة الزجاج المحطّم لما اعتقد أحدٌ أنّ شيئاً ما قد حدث هنا. فأغلقت الباب والتفتُّ نحوها. أهذا ما تريدين أن تُرينيه؟!

ولم يعجبني ما ارتسم على وجه الجدّة. ما تزال عابسة من غير أن تكفّ عن الإشارة إلى الباب بأصابعها المرتعشة. شعرت بالخوف مرة أخرى. بالخوف من أن تهزأ بي عيناها اللامعتان، بصمت. الخوف ممّا هو موجود هنا دائماً، في أساس كلّ ما أعمله. ولا أدري ما إن كان في الحلم أم في اليقظة؛ بالخوف من الصور التي تلاحقني منذ طفولتي وأحاول بكلّ الوسائل أنْ أبعدها. لكنّ الجدّة ما كانت تبدو هذا الصباح على استعداد لحمايتي. ولا أمّي لتردّد ما كانت تردّد مرات عديدة: «حسن! ذلك ما هو غير لعبة؛ يقيناً، بهذا الشكل تتعلّم التعامل...». وعسى الأشياء أن تنتظم ذات يوم من هذه الأيام مرّة أخرى وتصبح ما كانت عليه من قبلُ. لكن، ليس اليوم. اليوم لا مناص لي من أن أقبل الأمر. وأن أجيب عن السؤال: «من أنا؟» كما كانت الجدّة لتجيب منذ لحظة لو استطاعت الكلام. وكما سبق لأمّي أن أجابت عنه على طريقتها وأبي أيضاً لمّا غادر البهو مهزوماً وتركنا وحدنا: «أنتِ لستِ أحداً من الناس. أنتِ مشروع نونا فحسب. أختك المتخيّلة اختلاق...». كلمات اخترقتني كالرماح، وما كنت أستطيع حماية نفسي منها. لكنّي تغلّبت على نفسي، فاستنشقت هواء ودفعت الباب ودخلت المعبد بخَطْوٍ ثابت. إنه شكل مناسب: «أعلم أنّي نونا». إنه شكل لا يقاطعني فيه أحد أيضاً طوال هنيهة وأستطيع أن أنظّم أفكاري. لكنّي أصبحت لا أشعر بالذعر ولا بالحزن. وما إن دخلتُ حتّى هاجمني اليقين فجأة أنّ هذا الوضع ليس جديداً أيضاً، فلقد عشته من قبلُ ليس

مرّة واحدة وإنّما مرّات عدّة. ويعني الانتظار والتذكّر أن الهدوء يأتي بعد العاصفة. وأن أستجمع نفسي في أيّ مكان يكون خيراً من هذه الحجرة، حجرتي. كلّهم يعلنون عن أنفسهم قرعاً قبل أن يدخلوا. ولا وجود لمرايا. ولا مسطّحَ يجرؤ أن يعكس شفاهاً مفلطحة وأعيناً صغيرة. إذاً، أنا من أريد أن أكون. وهكذا أطبق عينيّ وأتنفّس بعمق وأنتظر إلى أنّ أفرّ من جسدٍ لا أتعرّف فيه إلى نفسي. وآمل أن أتأمّله من الخارج. وأخيراً، أنتظر إلى أن تهدأ العائلة وتعود المياه إلى مجاريها شيئاً فشيئاً.

حينئذٍ أستطيع كعادتي دائماً، أن أقصّ كومة من الأشياء على من أنا به معجبة.

محادثة العجائز

حدّد لها الصديق موعداً في الساعة السابعة في حانة «باريس»، لكنّها حضرَت قبل نصف ساعة من الموعد. كانت طاولة الرخام قرب النافذة شاغرة. وقالت لنفسها: هذه علامة حسنة؛ وطلبت قهوة بالحليب. وسرعان ما ندمت على طلبها. «الأفضل منه ويسكي»، فقد كان آندرِس فرصتها الوحيدة والأخيرة! فشربت جرعة لتكتسب شجاعة. وما كانت تستطيع العودة إلى الوراء، ولا أن تضيع في زوَغانٍ غير ضروريّ ما إن يظهر. سوف تسعى إلى لبّ الموضوع. فتطبع قبلتين على خدّه ثمّ تستعير النقود. «أنا بحاجة إلى نقود!» وقبل أن يستجيب الصديق ستشرح له الوضع ببرود وبطء. «غداً سأُخلي المأجور. أنا في ضيق. وعليك أن تساعدني!». ثمّ تُريه الإنذار وتنتظر. ولن تنتظر طويلاً. تنتظر الوقت الكافي لكي يتحقّق من أنّ الأمر جدّيّ. وإذا قال وهو ما بين الدهشة والضيق: «عجباً!» أَوْ: «تقولين لي ذلك بعد عامين من غير أن نلتقي؟» فتمدّ له فوراً ورقة وقلماً. «هو قرض فقط. سأوقّع على صكّ. وضعْ أنت الشروط والمواقيت!». لقد كان آندرس دائماً شخصاً طيّباً. وفي أزمنة أخرى لم يكن، حسبما تتذكّر، غير مكترث بها. ثمّ هزّت كتفيها. هذه دناءة منّي. دناءة باتّصالي به

هاتفيّاً، ولبسي بنطالاً ضيّقاً وفكّ أزرار البلوزة بشكلٍ مدروس عند مستوى الصدر. لكن، ليس لدي خيارٌ آخر، علاوةً على أن صوته في الهاتف بدا لها لطيفاً. «أيّ مفاجأة، آليثيا! ماذا عن حياتك؟». لم تقصّ عليه شيئاً من حياتها، وإنّما اقتصرت على القول: «عن هذا أريد أن أحدّثك. ولِمَ لا نلتقي؟»، وحاولت أن تعبّر عن نفسها بأعظم هدوء، وأن تفرّ من التهويل، وألّا تسمح بأن يستشفّ أنّ وضعها وضع يائس. ولقد حصلت على ذلك. فاقترح آندرس، بعد أن شكّ لحظةً، حانة باريس. «في الساعة السابعة. ليس لديّ وقت كثير. فقد أخذتِني بالمفاجأة».

كانت ما تزال حتّى السابعة والنصف عند طاولة الرخام قرب النافذة. وفي الساعة الثامنة إلا ربعاً اقتربت منها النادلة ومعها صينيّة فارغة. «أأنت آليثيا؟ لك رسالة بالهاتف. الشخص الذي تنتظرين لا يستطيع المجيء. قال إنه سيهتف لك الأسبوع القادم». دفعت آليثيا ثمن الويسكي أربعةً وخمسين سنتيماً، وأبقت عشرة سنتيمات إكراميّة وعدّت الباقي. إنّها خمسة يوروات وأربعون سنتيماً. هذا كلّ ما بقي معها. إلى الأبد... خرجت من الحانة وتنفّست بعمق. «ديّوث!» -قالت- «هذا هو آندرس: جبان وديّوث!». وزرّرت البلوزة. «وأنا عاهرة!».

اجتازت الشارع ووقفت أمام مرآة محلّ أحذية وكرهت صورتها. وكانت تستحقّ ذلك جدّاً: أنْ ترتّب نفسها من أجل آندرس، والثقة بمفاتنها وافتراضها أنه سيحلّ مشكلتها... وشعرت بنفسها مُهزَّأة. فقد سخر منها هو والمدير وصاحبة المأجور البعوضة الميّتة... «لا تهتمّي يا آليثيا! ادفعي متى استطعت! كلّنا كنّا شبّاناً...»، ومجرّد التفكير فقط في صاحبة الشقّة كان يجعلها مريضة. «لا تهتمّي...» ثمّ إطلاق الكلب الضاري(*) في

(*) أي الإنذار بالإخلاء. (المترجم).

اللحظة الصحيحة. ثمّ المدير والتهديد بالطرد، وإخلاء المأجور الوشيك. إنها لعبة بارعة للتخلّص من المستأجر وزيادة السعر. ثمّ سوء الحظّ. حتى أسابيع قليلة كانت مطمئنّة إلى أنّ مسلسلها سيُقبَل. مسلسل تلفزيوني عملت فيه أكثر من عام. وقد طمأنوها إلى ذلك. وكان جاهزاً تقريباً. لكنّ المسؤول قد بُدّل في ذلك الحين وسقط العالم عليها. تستحقّ ذلك فعلاً لثقتها بحُسن طالعها ولأنّها حمقاء.

«أتستطيعين مساعدتي؟!» - سمعت فجأة.

التفتت مستاءةً فرأت امرأة عجوزاً. كانت تلبس ثوباً رُسمت عليه أزهار، وابتسمت لها. فلم تبدُ لها أنّها بحاجة إلى نقود.

«أنا مريضة بالسكّري، وأحياناً لا أميّز الألوان. فهل الإشارة خضراء أم حمراء؟».

«هي خضراء» - قالت آليثيا.

وفكّرت في مساعدتها. مساعدة. فتلك المرأة المسكينة تحتاج أيضاً إلى مساعدة.

«اعبري الشارع معي!» - أضافت. ومدّت لها ذراعها. فابتسمت العجوز مرّة أخرى.

«ما ألطفك، يا فتاة! أتعلمين أنّي أسكن هنا؟».

ووجدت نفسها مرّة أخرى إزاء حانة باريس. لكنّ العجوز لم تتخلَّ عن ذراعها. وسارتا قُدُماً بضعة أمتار.

«شكراً لك، شكراً جزيلاً! هذا هو بيتي».

أحسّت آليثيا بنفسها أنها أحسن حالاً شيئاً يسيراً. أهو العمل الصالح؟ واستطاعت مدّة ثوانٍ معدودات أن تنسى مشكلاتها. ونظرت إلى البيت.

غرفة بوّاب في مبنى من مباني الإنسانتشِه(*) الذي عرف أوقاتاً أفضل. على الأقلّ للعجوز بيت.

«ألا تريدين أن تدخلي؟ ألا ترغبين في تناول شيء ما؟».

يا للمرأة المسكينة! إنها وحيدة. وهي بحاجة إلى من تتحدّث إليه. وهي أكثر ثقة بنفسها منّي. كيف تجرؤ على أن تدعو امرأة غريبة؟!

«آسفة!» -قالت، ونظرت إلى ساعة معصمها- «هناك من ينتظرني من أجل العشاء».

فقد تخيّلت إبّان الصباح كلّه تخيّلات عند مجيء الليل. آندرس سيمدّ لها شيكاً بعد تغلّبه على المفاجأة. أو يلتقيان في أوّل ساعة من اليوم التالي. على كل حال سيُلغي التزاماته ويدعوها للعشاء. فصديقة في ضيق تستحق كلّ رعاية. لكن، لم يظهر شيء كما رغبت فيه. خمسة يوروات وأربعون سنتيماً. هذا هو رأس مالها. ففي التصفية الأخيرة كان صافي رصيدها خمسة يوروات وأربعين سنتيماً.

«سيكون في يومٍ آخر» -قالت العجوز وهي تُخرج المفاتيح من حقيبة اليد- «اسمي رو. روسا ماريّا. لكن، منذ صغري، يطلقون عليّ اسم رو».

وبدت لها رو فاتنة، عجوزاً فاتنة.

«أسكن الطابق الخامس».

وتصوّرت آليثيا الطابق الخامس. هو طابق ضخم مملوء بالذكريات. طابق نموذجي في مباني الإنسانتشه. فالرواق وغرفة الطعام في طرف وغرفة النوم الرئيسية في الطرف الآخر. ثمّ ممرّ طويل تطوف به رو بجهد مرّاتٍ كثيرة في اليوم. وقالت لنفسها، نعم، كانت رو فرصتها الأخيرة.

(*) حيّ سكنيّ كبير في وسط مدينة برشلونة يشغل مساحة واسعة تبلغ 7.46 كم^2. (م).

«حسن! سأصعد معك لحظة صغيرة. لحظة صغيرة فقط».

فأضاء وجه رو من الفرح. وفتحت الباب وطلبت المصعد.

«الطابق الخامس» - كرّرت.

لم يضِع كلّ شيء. وكانت رو تبدو جدّ سعيدة حتّى لا تدري ما إن كانت هي من ستقصّ عليها مأساتها. فلا للنقود. فالعجائز لا يرغبن في تبذير المال، لكنهن ينشدن الصحبة. يقيناً ستعرض عليها بيتها. وستلحّ على أن تسكن معها مدّة أسابيع على الأقلّ... فليس لها الآن من تلجأ إليه. ففي اليوم التالي ستجد نفسها في الشارع. لكن، ربّما... وفكّرت في شيء رهيب. شيء جدّ رهيب ومُخجل حتى كرهت نفسها بكلّ قواها. لكنّ ذلك لم يكن تفكيراً وإنّما كان رؤيا فقط. إنه ومضة. ونقود. وأوراق ماليّة. أوراق مخبّأة في دروج مُحالة، في المطبخ قرب أكياس القمامة، وفي غرف الحمّام بين بكرات الورق الصحّي... فالعجائز هنّ هكذا... يخبّئن ممتلكاتهنّ ثمّ ينسينها. وهنّ يمتلكن في العادة حُلياً. تذكّرت بشكل سريع جدّتها. «تعالي يا بنت، سأريك حُليّي!». وبعد أيام قليلة من موتها ظهرت الأوراق الماليّة المنسيّة في أماكن أبعد ما تكون عن التصديق.

«حسن!» -قالت- «رو، هذا بيتك».

البيت كبيرٌ وغاصٌّ بالأشياء، وفيه مقدار من الفوضى. تبعت آليثيا العجوز في الممشى حتى وصلتا إلى غرفة الطعام. كانت الغرفة معتمة بسبب ستائر الرواق المسدلة، فأشعلت العجوز الضوء. وقدّمت لها كرسياً.

«ما اسمك، يا جميلة؟».

«آليثيا».

«ما أجمل هذا الاسم!».

أجل! كانت رو فاتنة. وفتحت خزانة - باراً من طراز الخمسينيات. وأخرجت قدحين صغيرين وزجاجة من خمر شيرِش. وشعرت آليثيا مرّة أخرى بالاشمئزاز، بالاشمئزاز من أن تسرق عجوزاً. وهذا أسوأ من محاولتها إغراء آندرِس. ولسوف تشرب خمراً ثم تنصرف.

«أحبّ من حين إلى آخر أن أتحدّث إليكنّ، أنتنّ الشابات. أتريدين شيئاً من المعجّنات؟».

فتحت علبة معدنيّة، ووضعت بكلّ حرص نصف دستة من أقراص البسكويت في صحن من الخزف. فأخذت آليثيا قرصاً منها. فمنذ الصباح لم تأكل شيئاً.

«ومرّي من هنا متى أردت! أنا أخرج قليلاً. وسوف نرحّب بك دائماً».

نعم، هي عجوز باسمة ولطيفة. ولربّما أزورها قبل ما يمكن أن تتصوّر. فقد أزورها في اليوم التالي ومعي حقائبي وما يُسمح لي بإخراجه من الشقّة.

«وأنتِ يا رو» -قالت وهي ترشف الخمر- «ألا تشعرين بوحدةٍ شديدة في بيتٍ كبير كهذا؟».

«أوه، كلّا!» -شرعت العجوز تضحك- «أنا اعتدتها. لكن، نعم، البيت كبير وأحياناً أضيّع الأشياء».

وراحت العجوز تنظر الآن حولها باحثة عن شيء ما.

«اصنعي لي معروفاً، يا بنتي! ساعديني لكي أجد نظّارتي. فقد تركتها هنا منذ لحظة... ربّما على الصُّوان».

نهضت آليثيا. وما إن عثرت على النظّارة حتى خطر في بالها اقتراح. ومعروف مقابل معروف. فالعجوز تعاملها وكأنّها تعرفها طوال حياتها.

والبيت ضخم. فتطلب منها حجرة. ولا تحتاج إلّا إلى حجرة. ولمدّة من الزمن.

«ها هي ذي!» - قالت. ثمّ انتابتها الحيرة فجأةً والنظّارة ما تزال بين يديها. فقد ميّزت للتوّ طاساً من الخشب على الصُّوان قرب صورٍ ضوئيّة مصفرّة وعلب فضيّة وأزهار خزفية، وسلطانيّة يُقرأ عليها «ذكرى مايوركا». وفي داخله سبحات وساعات وأساور وأزرار وكومة من العملات القديمة من فئة الريالين. ثم، أتكون حالمة؟ - بعض الأوراق النقدية من فئة خمسمئة يورو.

«شكراً مرّة أخرى. بسكويتة أخرى؟».

خمسمئة يورو. وفئات الخمسمئة يورو غير متداولة بكثرة. ولعلّ العجوز لا تعرف قيمتها. أو إنّها نسيتها. والثابت أنّها موجودة هنا في الطاس الخشبيّ مختلطة بأشياء رخيصة من سبحات وعملات غير صالحة... على الأقلّ، يوجد منها خمس أوراق أو ستّ، أو ربّما أكثر. ستٌّ مضروبة بخمسمئة؟ عمليّاً هذا ما كانت تدين به. أجل، هذه فرصتها الأخيرة. ولسوف تدفع غداً ما عليها قبل أن يُخرجوها من البيت. والأمر ليس أمر سرقة. وإنّما هو قرضٌ فحسْب. ولسوف تعيدها إليها ما استطاعت حتّى آخر سنتيم. ولسوف تدفعها على أقساط بإيداعها في صندوق بريدها ضمن ظرف ومن غير تحويل أو توقيع. لأنّها لن ترى العجوز مرّة أخرى.. لكن...

«آليثيا» -قالت رو- «هل أنت على ما يُرام؟».

آليثيا. لقد ارتكبت خطأً بأن أفصحت لها عن اسمها. وهذا برهانٌ على أنْ لا نيّة لها في السرقة. لكنّها خلّفت أثراً. وتذكّرت النادلة في حانة باريس: «أأنت آليثيا؟». هي عجوز تتّهم امرأة اسمها آليثيا، ونادلة تتذكّر أنّها نقلت

رسالة إلى امرأة تُدعى آليثيا. يا للأحمق آندرس! فهو لم يجعلها تنتظر فقط وإنّما شخّصها في أعين أهل الحيّ.

«نعم، يا رو. ليس مهمّاً. أنا أدخّن كثيراً وأحياناً...».

«سأعطيك أقراصاً من الكاراملِ بعرق السوس... ذلك جيّد من أجل القصبات الهوائيّة».

وغابت العجوز في الممشى. وتنفّست آليثيا بعمق. وردّدت في نفسها: لن يكون ذلك سرقة، وإنّما هو قرض فحسْب. فلم يرها أحدٌ تصعد. والبيت ليس له امرأة بوّابة. ولم تلتقيا أحداً من الجيران. وبعد ذلك، من يُصدّق عجوزاً؟ أوراق نقدية من فئة الخمسمئة يورو وفي المكان الأكثر وضوحاً من غرفة الطعام؟ وعلى الأغلب أنّها لن تتذكّرها. ألم تقل إنّها تضيّع الأشياء بشكل مستمرّ؟ ولسوف تنسى رو اسمها بالشكل ذاته الذي نسيت فيه ثروتها الصغيرة في طاس... وكان عليها أن تتّخذ قرارها. فنهضت الآن وأخذت الأوراق النقديّة. إنّها سبع أوراق. لقد أُنقِذتْ. وحفظتها في جيبها. ولم يُتح لها الوقت لتعود إلى كرسيّها. وبدا لها أنّها تسمع همس خطا العجوز. فانثنت وتظاهرت بوجود مشكلة في كعب الحذاء. ورأت على الأرض دمية محطّمة ودباً صغيراً فقد عينيه.

«لم أجدها» -قالت العجوز- «وأنا واثقة من أنّني اشتريت كيساً منها من الصيدلية».

وأرتها آليثيا الدب الصغير وسألت: «ألك أحفاد؟». رنّ صوتها بشكل واضح وطبيعي، وكأنْ لا شيء عندها تخفيه.

«لا» -قالت العجوز- «ابني لم يمنحني أحفاداً».

ابن. أَوَيعرف الابن أنّ لأمّه ثروةً صغيرة منسيّة في طاس؟ وأنّها دعت أوّل امرأة مجهولة لتناول البسكويت والخمر؟

«وابنك أيأتي لزيارتك كثيراً؟».

وكان وداع ومجاملة. فقد أمسكت آليثيا للتوّ بحقيبتها. تتأهّب للخروج من البيت. وأقلّ ما يمكن أن تهتمّ به تلك اللحظة ما إن كان ابنها يفي بواجباته كابن.

«كلا! من جهة المجيء فهو لا يأتي... ولِمَ عليه أن يأتي؟».

ولم تُرِها ما ارتسم على وجهها من تعبير. فقد أولتها العجوز ظهرها وأمسكت بطرف الستائر التي كانت تفصل غرفة الطعام عن الرواق.

«ابني يقطن هنا معي».

كلّ ذلك حدث في مثل غمضة عين. أزاحت الستائر بقوّة، واختلطت دندنة الحلقات بأواخر الكلمات «هنا... معي!». فغام نظر آليثيا. فأيُّ شيء ذاك؟ وكان عليها أن تستند إلى مسند كرسيّ كي لا تقع. وسمعت.

«أقدّمك إلى آليثيا!».

إنه رجلٌ ضخم مشوّه الخلقة يمسك بقضبان حديدية. ينظر إليها وفمه يسيل لعاباً. لقد كان مسخاً. كان دابّة عملاقاً. رأسه محدّب وعيناه خاليتان من التعبير ووجهه ملآن بالبثور... وكانت الحقيبة أوّل ما تحطّم على الأرض. وسرعان ما تبعها جسم آليثيا. وآخر ما تذكّرته في اليوم التالي كان صوت رو: «عامِلها بحذر، يا ابني! فدُمى من لحم رقيقة جدّاً...».

لكن، لا يمكن أن يكون ذلك مؤكّداً. ولم يكن مؤكّداً. ما هو إلا كابوس رهيب. بل أسوأ حلم في حياتها. إذْ وجدت آليثيا نفسها في السرير وعيناها ما تزالان مطبقتين. وكانت تسمع طقّة المفتاح في القفل. «حتّى لم يزعجوا أنفسهم بالقرع على الباب». تمتمت. «حسن! فَلْيطردوني. مُبارك لهم إخلاء المأجور. كلّ شيء خير من...»، وشعرت فجأة باحتكاك يد

خشنة شعراء. واستيقظت مرّة واحدة. كان الوقت نهاراً. لكنّها لم تكن في حجرتها وسط ملاءات السرير وإنّما ملقاة فوق حشيّة من التبن داخل قفص ضخم. وقد فتحت رو الباب لتوّها ووضعت صينيّة على الأرض. ولم تنظر إليها.

«أنا ذاهبة إلى الكنيسة، يا بني!».

وخرجت من الرواق المشبّك وأقفلت الجوزة.

«سنرى كم ستبقى. كل يوم يصبح العثور على أحدٍ ما أكثر صعوبة. وفتيات اليوم مثقّفات ولا يعجبهنّ محادثة العجائز».

وقبل أن تسدل الستائر، استطاعت آليثيا أن ترى فوق الصّوان الطاسَ الخشبي. وهنا كانت الأوراق من فئة الخمسمئة يورو والسبحات والأزرار وكومة من العملات من فئة الريالين وساعة يدها. ولم تشأ أن ترى المزيد. وأطبقت عينيها. فأحسّت بنفَسٍ كريه قرب فمها ورغبت في الموت. لكنّ الرجل الضخم كان رفعها في الهواء وراح يهدهدها وكأنها طفل رضيع أو دمية محبوبة.

داخلٌ مع صورة

اللوحة ليست كبيرة. أبعادها 28 × 35 سنتمتراً تقريباً. والإطار الذي وُضعت فيه جعلها أكثر صغراً أيضاً. وكنت أوّل مرّة آتي فيها إلى المعرض على شفا أن أضيّعها وأتجاوزها. فقد كان رجلٌ طويل وضخم يُخفيها عن الأنظار بشكلٍ كامل. كان عنقه عنق ثور يتقوّس بشكل طريف كأنه أباجور. وله رأسٌ ضخم للصراع. كان يتقدّم ببطء شديد وكأنّه ينتظر لحظة اقتحام اللوحة الزيتيّة فجأة. ثم تابعت جولتي والبرنامج في يدي. التنقيطيّون(*)! الواقعية الانطباعية في إيطاليا. توقّفتُ إزاء لوحة لسِيغْنوريني. واكتشفت فنّانين مثل فاتّوري وآباتّي. وأُعجبت مرّة أخرى بإضاءة مؤسسة مابفرِي إضاءة تامّة. لكني بدلاً من أن أخرج، عدتُ أدراجي مرّة أخرى. وهذا ما أفعله بشكلٍ شائع. فزياراتي هي في العادة ذهابٌ فإياب، ثم ذهاب مع كلّ المعلومات التي استطعت أن أراكمها في الطريق. إنه شيء ما يشبه حرف N مضغوطاً. أو ورقة مطويّة بُسطت على شكل حرف أبجديّ. هذا هو شأني.

(*) أو Macchiaioli من macchia = بقعة، لطخة. هم مجموعة من الرسّامين الإيطاليين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ابتعدوا عن الأساليب القديمة وأنجزوا كثيراً من أعمالهم في الهواء الطلق، بضربات سريعة بالريشة. (م).

ولمّا عدتُ لم أجِدِ الرجل الضخم وذا القَدَع(*) الملحوظ. واستطعت أن أقترب من اللوحة: داخلٌ مع صورة.

سأحاول وصفها. هي حجرةٌ فيها ما لا غنى عنه فقط. فيها سريرٌ وطاولة ليليّة وكرسيّان. وجدرانها مغطّاة بورق ملوّن. ونرى عبر الباب الموارب باباً آخر. وإلى جانب السرير فتاة راكعة أو تجلس القرفصاء. الفتاة غريبة الحال، وتلبس عباءة سوداء ضيّقة لها ياقة بيضاء صغيرة وتستند برأسها إلى السرير وتُمسك بيديها رزمة أو صرّة يُرجَّح أنّها عمِلتْها هي نفسها من الملاءة. ونعلم من حجمها أنّها تحفظ شيئاً ما في داخلها. أم إنّ الأمر ببساطةٍ أمرُ ثيابٍ متّسخة؟ وإلى جانب الفتاة وملاءتها نرى كرسيّاً صغيراً يُطوى طيّاً، وربمّا منضدة إضافيّة مع علبة مفتوحة تبدو لنا علبة أدوات خياطة. حينئذٍ، أيمكن أن يكون ما تحفظه الفتاة في الصرّة أشغال إبرة أو أغطية مطرّزة أو ستائر طرّزتها هي نفسها؟ قد يكون ذلك. فاللوحة تتضمّن قصّة على الأرجح لن نكشف سرّها أبداً. لكنّنا لو أمعنّا النظر بشكل أفضل لرأينا أن الفتاة ليست راكعة ولا هي جالسة القرفصاء وإنّما هي مُقعية، أو بالحَرَا، مختبئة، وكأنّها خائفة من شيء ما أو من أحدٍ ما يمكن أن يدخل في أيّ لحظة عبر الباب. بل هي مذعورة حتى أنّها أطبقت عينيها من غير أن تتخلّى عن الإمساك بالصّرة بقوّة. فإذا كانت هي لا ترى فلن يراها أحد. فيا للمخلوق المسكين! لكنّي قلت من قبلُ إن الفتاة غريبة الحال، وأُلِحّ على ذلك. أو أكثر من غريبة الحال. هي مميّزة. وإنّي أتذّكر شخصيّة قصّةٍ كتبتها منذ عهد قريب وسمّيتها نونا. ثمّ دنوت منها ببطء كما فعل الرجل ذو العنق كعنق الثور. وكذلك كانت عينا الفتاة صغيرتين على غرار عيني شخصيّتي.

(*) في الطبّ هو بُعدُ النظر الشيخي. (م).

أوَليستا كذلك: وإنّما هي تبقيهما مُطبقتين فقط بكلّ قوّة مُقلِّدة بشكل كامل تكتيك النعامة. والتسريحة طريفة بالنسبة إلى العصر؛ شعر قصير مع بروز عرفِ بانكي(*) فوق الجبهة. أمّا الأذنان... فقد أمعنتُ النظر أوّل مرة في الأذنين. إنّهما كبيرتان ومفرطتان في الكبر بالنسبة إلى فتاة. فذكّرتني بالعفاريت والجن والأشباح، وإن لم يكن واضحاً فيها ما إنْ كان ذلك هو قصد الرسّام. ولم يكن لوجهها ملامح مميّزة كثيراً ولا هو محدّد كما هي «موتيفات» الورق الملوّن أو رأس السرير المصنوع من الحديد وصفائح النحاس. وخطر لي فجأة أننا لسنا على الأغلب إزاء طفلة وإنّما شابّة صغيرة، وأنّ طول السرير المفرط يجعلنا بالتضادّ نراها كمخلوق صغير. ومن جهة أخرى يمكن لثوبها الأسود أن يكون ثوب معلّمة مدرسة... لكن، كلّا! فجسمها جسم طفلة. ولولا الياقة البيضاء لخُيِّل إليك أنّها تلبس الحِداد بشكل صارم. أو أن الأمر يتعلّق بزيّ غير مُوفّق... أهي نزيلة ملجأ للأيتام؟ وأتابع الشكوك ذاتها التي انتابتني في زيارتي الأولى. بل إنّي أكثر شكّاً أيضاً.

لأنني هنا من جديد بعد أسبوع من ذلك وفي مدريد مدعوّة للمشاركة في ورشة أدبيّة، فانتهزت الفرصة لأظلّ ليلة أخرى وأزور مرّة أخرى معرض الفنّانين التنقيطيّين. وفي هذا اليوم ذاته سأعود إلى برشلونة بالقطار كما هي رغبتي. لكنّني أحظى الآن بوقت الصباح كلّه. فربّما يحالفني الحظّ فيجلو لي أحدٌ ما يقف أمام اللوحة بشروحه سرَّ قصّة لم أستطع أن أجدها في الكتب ولا في محرّك البحث غوغل. ولا بسؤالي بشكل أحمق، أحدَ الموظّفين الذي أجابني بهزّ كتفيه. إذاً، أنا لا أعلم أكثر ممّا علمت

(*) punki نسبة إلى حركة احتجاجية في بريطانيا أواخر عقد السبعينيات من القرن الماضي، اتّخذت مظاهر وتزيّت بأزياء غير لائقة في ذلك العصر. (م).

منذ أسبوع: اسم الرسّام تشيتشيوني، وتاريخ اللوحة المحتمل 1867. وأفكّر أحياناً كما أفكّر الآن أن تشيتشيوني الذي بدا في لوحات أخرى أكثر وضوحاً بكثير، أراد أن يُبقي سرّ اللوحة والطفلة المشتملة عليها في غموض إعلانٍ دارج تلك الأيام. أو على الأغلب لا يوجد فيها سرّ. أو أنه موجود، لكنّ الرسّام الذي كان يلعب بتدرّجات اللون والنِّسَب كان أوّل من فُوجِئ بالنتيجة... وأصبحتُ الآن لا أفكّر أكثر مما فكّرت. فسمعت وشوشاتٍ وأصواتَ أطفالٍ خلفي. فالتفتُّ فوراً. وكانت معلّمة شابّة جدّاً تبتسم لي بامتنان. مكتبة سُر مَن قرأ

«الآن، تستطيعون الجلوس!» - قالت لهم المعلّمة.

إنهم دستة من الأطفال جلسوا بشكلٍ منظّم على الأرض، فتنحّيتُ عنهم بضع خطوات. لكنّي لم أنصرف. أعجبتني هذه الزمرةُ ونكاتُهم، والمهارة التي تجدّد بها المرشدات (أو المعلّمات) عصراً وعاداتٍ مشيرةً إلى تفاصيل وصور، ثمّ يأخذ الأطفال برفع أيديهم، فيجعلونها تنطق شيئاً فشيئاً ويضفون عليها حياة، كما تُضاء رسوم مسلسل هزلي وهم يتسلّون. لكنني أشعر اليوم فوق ذلك بفضولٍ لأعرف بماذا توحي إليهم اللوحة. وانتظرت.

«ما أكبر السرير!» - قال أحدهم.

وأجمع الآخرون على الدهشة. فقد بدا لهم كبيراً. «هو عتيق»، قال آخر. «بل قديم» صحّحت المعلّمة. لكن، لم يتحدّث أحدٌ منهم عمّا كنت أعتقد أنّهم سيتحدّثون. عن أميرة الجلبان وسريرها العملاق. لم يتحدّث الأطفال عنه ولا المعلّمة. ولعل آندِرْسِن(*) لم يُدرَج اليوم في

(*) Hans Christian Andersen (1805-1875): شاعر وقاصّ دانمركي. يعدّ أحد أبرز كتّاب الحكاية الخرافية. واختير يوم ميلاده ليكون يوماً عالمياً لكتب الأطفال. (م).

خطط التعليم. أو قد يكون الأطفال أكثر دقّة مما كنتُ عليه في مثل سنّهم. وكيف يُقارَن سريرٌ عليه ثلاثة فرش، بعشرين فراشاً على سرير الأميرة الناعمة، العملاق؟ وأحسستُ بنفسي فجأة كأنّي راشدة حمقاء. وتُقتُ في لحظة واحدة إلى طفولة لم أعشها، طفولة هؤلاء الأطفال وهم يجلسون بهدوء إزاء لوحة زيتيّة، ويستطيعون أن يقولوا ما يشاؤون، وليس ما يريده المعلّمون منهم، كما كان يحدث في أزمنة أخرى. وبشكلٍ ما انتهيت إلى أن أجلس قربهم من غير أن أتحرّك ميليمتراً واحداً، ومن غير أن أغيّر من وضعي. ما أعمارهم؟ أهم في التاسعة أم العاشرة من العمر؟

- الطفلة تلعب لعبة الاستغماية مع أطفال آخرين لا يظهرون في اللوحة... وتنتظر من غير أنْ تتنفّس لكيلا يكتشفوها.

- لا، لا، هي لا تلعب. إنها سارقة وتضع كل ما سرقته داخل الملاءة.. لذلك لا نجد شيئاً في الحجرة.

- وهي خائفة شيئاً قليلاً، لأنّها صغيرة. وهي أوّل مرّة تسرق فيها.

- هي خائفة كثيراً. إنّها ترتجف. لكنّها لم تسرق ولم تفعل شيئاً سيّئاً. وما حدث هو...

وكان آخر من تكلّم طفلة حمراء الشعر. وبدأت الكلام ثمّ انقطعت فجأة. وكانت عيناها ما تزالان تمعنان النظر في اللوحة. وكانت تلحظها وهي مُنوَّمة من غير أن يرفّ لها جفن، حتّى يُخيّل إليك أنها لا ترى ما نراه نحن الآخرين، على الأقلّ بالطريقة ذاتها.

«... ثمّ؟» -سألت المعلّمة- «تابعي ولا تخجلي!».

لا أعتقد أن الطفلة تشعر بشيء شبيه بالخجل.

لكن، نعم، هي منفعلة وأنا أجهل السبب. وتشجّعتِ الآن.

«تعلم أنّهم يريدون قتلها» - قالت آخر الأمر.

ولبثت وعيناها ممعنتان في اللوحة.

وقد أثار مشاعري صوتُها الواضح والهادئ وموقفها أيضاً. كانت تتقرّى اللوحة الزيتيّة وكأنّها إزاء كتاب مفتوح، وهي تقتصر على تكرار بعض الجمل فيه. وسألت المعلّمةُ مرّة أخرى: «من يريد قتلها؟». وابتسمت المعلّمة. لكن، ليس كذلك أطفال الفريق الذين كانوا ينظرون إلى زميلتهم وعيونهم ملأى بالدهشة.

«أبواها» - أجابت بشكلٍ قاطع.

ولم يلبث الصمت الذي استُقبلت به كلماتها أن عمل عمله كسؤال وجواب. وبيّنت بصوتها الواضح والهادئ ذاته ما كنّا نرغب جميعاً في معرفته، من غير أن تشيح بنظرها عن اللوحة الزيتيّة متنبّهة إلى ما يمثُل فيها فقط. ويُخيّل إليك أنّها تكلّم نفسها. وكفّت المرشدة عن الابتسام.

- هي مختبئة في حجرتها والباب مفتوح... لقد تركته هكذا عمداً لكي يظنّا أنْ لا أحد في الغرفة، فيبحثا عنها في مكان آخر... وتبدو عينا الطفلة كبيرتين، لكنهما ليستا كذلك. فمتى تصبح مطمئنّة إلى أن الخطر قد زال، فسوف تذهب من البيت بعيداً جدّاً، فلا يستطيعان قتلها.

إلى جانب لوحة «داخل مع صورة» ما كان يُسمع طنين ذبابة. وداهمني شعور أنّنا غير موجودين، وكأنّنا ننتمي إلى واقع آخر. إلى حلقة لا يراها الزوّار الآخرون. حلقة كان يصلها مع ذلك صدى خُطا أخرى بل وأصوات أخرى، وليس الصدى فحسب. والآن، وقد كبُرت أذناي أيضاً، أميّز بكلّ وضوح تعليقاتٍ وتقويمات يُنطق بها في أبعد الأماكن في القاعة. لكنّ صمتنا كان يبتلعها. صمتنا. وشعرت منذ لحظة أنّني جزء من الفريق.

- حسن! لكنْ، لِمَ يريد أبوان أن يقتلا ابنتهما؟

وبدت لي المعلّمة منرفزة إلى حدّ ما. إذْ إنّ شيئاً ما يفرّ من سيطرتها ولا تعرف كيف تعالجه. لذلك، ربّما ابتسمت مرّة أخرى، أو بالحَرَا، تريد أن يظنّ الآخرون أنها تبتسم. لكن، كلّ ما استطاعت عمله هو تكشيرة وزمّ شفة وبقيّة تقليد بسمة زائفة.

- لأنها تعلم شيئاً... لقد رأت أشياء ما كان يجب أن تراها.

«آه، لا بأس!» -أصبحت التكشيرة لا تذكّر في شيء بالبسمة- «وماذا رأت؟ ما هي هذه الأشياء؟».

إنّها شابّة. يقيناً ليس لها تجربة كبيرة. أو على الأغلب هي المرّة الأولى التي تجد فيها نفسها أمام تفسير من هذا العيار. ومن المؤكّد أن السؤال أفلت منها، وهي الآن نادمة. ولِمَ كان عليها أن تهتمّ بهذه الأشياء. والأفضل ألّا تعلم فيمَ تكمن.

وتردّدت الطفلة حمراء الشعر أوّل مرّة. وتبدو مضطربة وكأنّها أفاقت من حلم. فخفضت رأسها وأجابت بصوت ضعيف: «لا أستطيع قوله».

وأغمضت عينيها على غرار الطفلة في اللوحة. ووجدتُ في الحال تكافلاً بين الطفلتين. بين الطفلة التي إلى جانبي والصورة المقلقة التي تلبس السواد. إنّه تماهٍ وتشابهٌ يذهب إلى ما بعد الفيزيقي. فرجعت إلى لحظاتٍ سابقات لمّا كانت الطالبة تتقرّى اللوحة من غير أن يرفّ لها جفن. وبدا لي أنّها كانت تقرأ فيها. لكني غيّرت الذكرى الآن. والطفلة كانت تنظر إلى اللوحة وترى نفسها ذاتها في داخلها وكأنّها مرآة.

«عسى ألّا تستطيع قوله» -واستعادت الشابّة هدوءها- «حسنٌ! سندع الأمر هنا... أيريد أحد آخر أن يتكلّم؟ من منكم خطر له تفسير آخر للمشهد؟».

لا أدري ما إن كانت سمعت العبارة بشكل سيّئ أو أنه مجرد خطأ أو على العكس تماماً: سمعتْها تمام السمع وعَملت ما عملته قصداً. فالشيء الثابت الوحيد هو أنّ المعلّمة بصوت عالٍ جدّاً وبنبرة لا تقبل ردّاً، أنجزت تحويراً ذا مغزى في ثوان معدودات. لأنّه ليست الطفلة من لحم وعظم مَن كان يعترف: «لا أستطيع قوله». وإنّما هي صورة تشيتشيوني من «لا يستطيع قوله» انطلاقاً من موقفها الطريف قرب سرير. وإذا كانت صورة اللوحة تأبى أن تتعاون... فلِمَ الاستمرار؟ فلعلّ التربية لم تتغيّر كثيراً كما كنت أعتقد، إذْ إنّ كل ما يخرج عمّا هو متوقّع يظلّ مُخيفاً. لذلك حاولتْ أن تعيد المياه إلى مجاريها. فأشارت إلى الأطفال واحداً واحداً. «أنت، ربّما؟»، و«أنت؟»، «من لم يتكلّم حتّى الآن؟»، وكان واضحاً أنّها تُرغِمهم على المداخلة وأن تمحو بكلماتها كلّ أثر للقلق والاضطراب الذي حدث منذ لحظات.

- إنّه صبيّ يلبس ثوب بنت.

فضحك الآخرون، وضحكت المعلّمة أيضاً. وأفرطوا في الضحك. وكانت سلسلة من القهقهات المزيّفة أفسّرها أنها تنفيس وترويح عن النفس. وأفترض أن ذلك يسري بالعدوى. وزاد عدد رؤوس الأطفال التي تتحرّك وترجع إلى الوراء أو تتأرجح. لكنّي أفترض أيضاً أنّ هناك من يتمنّع كرأس حمراء الشعر مثلاً. فقد ظلّت ثابتة وساكنة غير مبالية بما ترى وتسمع. فما كانت تشارك في الحفلة وما كانت تُولي انتباهها إلى ما سوف يضيفه زميلها.

- هو ذاهب إلى حفلة أقْنعةٍ، فأخذ بزّة أخته الكبرى من غير إذنها. ثمّ اختبأ لأنّ أحداً ما كان يقترب.

هذا هو التفسير الأخير. وهو الذي انتصر والذي سينقله الأطفال كلّهم إلى بيوتهم. وكانت المعلّمة راضية جدّاً، فأشارت بيدها إلى التلاميذ لكي ينهضوا ويجلسوا مرّة أخرى على الأرض قرب لوحة أخرى هي على الجدار المقابل بالضبط. ولبثتُ خلف الفريق هنيهة أيضاً. وسمعت تفسيراتهم ونكاتهم. لكنّ الطفلة ذات الشعر الأحمر ظلّت هذه المرّة صامتة. ولم يدهشني ذلك. لقد قالت كلّ ما كان يجب أن يُقال في وقته إزاء لوحة: داخلٌ مع صورة، أو إزاء مرآة. والآن ما هي إلّا طفلة تحتفظ بسرّ. أنهيت زيارتي ودخلت الدكّان، واشتريت نسخاً وبطاقاتٍ وأقلام تلوين. والنهار كئيب وغائم لكنّني رغبت في أن أذهب سيراً على الأقدام حتّى شارع باسِيو ديل برادو وآخذ حقيبتي من الفندق وأتوجّه من غير عجلة إلى محطّة القطار أتوتشا. فخرجت من المؤسّسة وتقدّمت أمتاراً عدّة، لكن ليس كثيراً حتّى إني لم أصل إلى الناصية؛ لأنّني سرعان ما توقّفت فجأة. فقد سمعت للتوّ صوت صرير مكابح تلتها صيحات. صيحات كثيرة وزقزقات أطفال، ثمّ صوتٌ آمرٌ ضاع وسط مزامير السيّارات: «انتبه!».

إنّه الفريق ذاته. ها هم الأطفال يقفون الآن بلا حراك على الأسفلت كأنّهم تماثيل حجرية. أمّا الشابّة فقد ركعت على الأرض واحتضنت جسم أحدٍ منهم لم أستطع تمييزه. فاقتربتُ. وعلّقتْ امرأة كانت إلى جانبي أنّه لم يحدث شيء، هو مجرّد خوف. وكان منبّه إحدى السيارات التي لم يعرف قائدها بعدُ ما حدث، ما يزال يرنّ. والآن حاول الطفل الذي سقط وتعانقه المعلّمة دائماً، أن ينهض بجهد. وبدا أنّه يعرج قليلاً. كانت ركبتاه مخدوشتين. وكان قليلٌ من الدم على ساقه. وسمعت قريباً منّي: لا شيء مما كان يمكن أن يحدث. وسألت عمّا حدث وكيف حدث. فقيل لي إنّها العربات التي ينطلق بها سائقوها كالمجانين. ومن قلّة الحذر أن تخرج

مجموعة من الأطفال مع مسؤول وحيد. وكان على الحافلة المدرسيّة أن تنتظرهم عند الباب ذاته وليس على الجانب الآخر من الساحة. وما كان أحدٌ من الحاضرين يعرف على وجه الدقّة ما حدث. ويقولون لقد أخذتهم المفاجأة. ولم أسأل كثيراً. فالحوادث كما أعلم تحدث دائماً فجأة.

لكنّي لم أتحرّك بعدُ.. وقد رأيت وجه الطفل أخيراً. إنّه أشقر أنمش وعلى وجهه أمارة الخوف. وشرع في هذه اللحظة ذاتها يبكي. فاحتضنته المرشدة مرّة أخرى. ونظرتُ إلى رفاقه الذين ما يزالون على الرصيف، وبحثتُ عن الطفلة حمراء الشعر. وكلّفني جهداً العثورُ عليها، لأنّها كانت ترتدي معطفاً مطريّاً أحمر مع قبّعة، معطفاً ما كانت ترتديه وهي جالسة على أرض القاعة وقبّعة صغيرة لا قيمة لها كشفت للتوّ عن إنذار الذئب(*). فاجأتُها وهي تنظر إلى الطفل الأشقر الأنمش بالانتباه ذاته الذي كانت تقوم به وهي تتقرّى لوحة تشيتشيوني. لكنّها ما كانت تبدو منوّمة وإنّما كانت ترتجف فقط. وكأنّها تعلم أنها هي المقصودة بذلك الحادث. وكأنّ الأمر مجرّد خطأ ومسألة وقت محضة. وتذكّرتُ كلماتها لمّا كانت تتماهى مع الطفلة المختبئة في اللوحة: «يريدان قتلها». هذا ما كانت تقوله لنا حينئذٍ وتكرّره الآن عيناها اللتان استدارتا بفعل الخوف. أو الخُبال؟ ولسوف يعجبني أن أقرأ أفكار ذات القبّعة. وأتحقّق من أنها كانت تعتقد بأنّ ما حدث للتوّ هو محض حادث سيّئ، ومحاولة اغتيال مُخفقة، أو تحذير مشؤوم، وإن يكن ذلك قليل الأهمية في الواقع. ولربّما اندفع الطفل الأنمش من غير حذر إلى الشارع ومن غير أن ينظر ويقيس الخطر. وما يهمّ

(*) المقصود به هنا الحادث الذي وقع للتوّ، والذي قد تكون معنيّة به كما سيرد بعد قليل، تشبيهاً بالذئب في الغابة في قصة «ذات القبّعة الحمراء»، أو «ليلى والذئب» في أدبيّاتنا العربية، وعذراً من القارئ. (م).

هو الخوف. فالطفلة ترتجف إزاء بشائر ما يمكن أن يحدث لها. وإنّ وقوع حادث هو أحد الأشكال الممكنة للتخلّص منها.

ووصلت في آنٍ واحد عربة الطوارئ وعربة الشرطة: حاولتُ أن أتكلّم، وأُعلِمهم أنّ الطفل المصدوم بحاجة إلى عناية، وأن إحدى زميلاته تعاني صدمة. انظروا كيف ترتجف! لكني لم أتمكّن إلا ممّا هو ضروريّ: «من فضلكم...». فقد ناشدوني كما ناشدوا بقيّة الفضوليّين أن نفضّ التجمّع. وأن ننصرف. حتّى لم أستطع أن أرى وجه الطفلة ذات المعطف المطري مرّة أخرى. فقد قاد شرطيّ مرور التلاميذ في صفّ إلى الجانب الآخر من الساحة حيث كانت الحافلة المدرسيّة بانتظارهم. ولم تكن لي أيّ حيلة إلا أن أتابع طريقي وأسأل نفسي مرّة أخرى: «ماذا أصنع؟».

وخطر لي عرضاً أن مخفراً للشرطة موجود بعد كتل مبانٍ عدّة قبل الوصول إلى الفندق. إذْ إنّي تنبّهت له البارحة وأنا أقوم بنزهة، وأحسبه في شارع هويرتاس أو ربّما في الشارع التالي، شارع موراتين. وعلى كلّ حالٍ لديّ وقت أكثر من كافٍ لأُعِدّ ما يجب عليّ أن أقوله: الطفلة ذات الشعر الأحمر، والرسّامون الطليان، وكلماتها إزاء اللوحة، وصوت المكابح العنيف. وليسألوا الطوارئ والإسعاف وعربة زملائهم. فهم يعرفون اسم المدرسة أو المدارس إن كانت متعدّدة. لأنّي أفكّر الآن أنّ الأمر ربّما كان عبارة عن مجموعة عرضيّة، وأنّ جولة في مختلف قاعات الفنّ جمعت طلّاباً من جهات مختلفة. وسألت نفسي أيضاً ما إن كانت الشابّة هي معلّمة بعض الطلّاب في الواقع، وتعمل في مركز محدّد، أو إنّها فقط متعاقدة كدليل ولا تعرف شيئاً عن تلك المخلوقات الصغيرة. وكثير من الأسئلة وخاصّة كيف أؤلّف حواراً متماسكاً بمعطياتٍ جدّ قليلة؟ يمكنني أنْ أبدأ

بتقديم نفسي. «صباح الخير. أنا كاتبة واسمي هو...»، لكنّي حتّى في الخيال لم أستطع التحرّر من السخرية. إنّها مجنونة تتظاهر بمظهر كاتبة. أو هي كاتبة مجنونة. ما الفائدة؟ وأستطيع أن أقترح عليهم تجنّباً للخطأ أن يبحثوا عن معلومات عنّي في محرّك البحث غوغل. وهذا شيء لن يفعلوه على الأقلّ ما دمت أمامهم. لكن، حتّى لو فعلوا ذلك وتثبّتوا من أنّ ما أقوله صحيح، فإنّهم لن يُبدوا لي أدنى احترام. فمخافر الشرطة ملأى بالمتنبّئين والوسطاء الروحيّين والمهووسين، وفارغي الأشغال وربّات بيوت ذوات قدرات تفوق الحواسّ، أو بأشخاص جدّ خياليّين كما هو حالي أنا. «هذه سيّدة أخرى تلعب لعبة آغاثا كريستي...». هذا ما سوف يظنّونه بي. وفوق ذلك: فيمَ تكمن الوشاية؟ بجريمة لم تُرتكب بعد، وزوجين لم أرهما في حياتي، هما أبوا طفلة لا اسم لها. لا أبالي. أستطيع أيضاً أن أعفي نفسي من الدخول. وقد يكون هو الأفضل. «أعلم أنّي لا أمتلك براهين كافية. لكن، أحبّ أن أقصّ شيئاً شاهدته للتوّ، فلعلّ ذات يوم...» أيّ يوم؟ لا أحسب أن مفوضيّات الشرطة لديها فائض من الوقت حتّى تؤرشف محض تخمينات تحت عنوان «لعلّ ذات يوم...». لكنّي تابعت «إن حدث ذات يوم حادث مشبوه واختفاء وموت... فتذكّروا كلماتي و...». وهذا لم يُقنعني أيضاً. «سيّدتي، كلّ يوم تحدث حوادث مشبوهة. واختفاءات وموت...». والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أفعله هو أن أطلب منهم الصبر، فأبدأ من البداية. من مجموعة أطفال كانت في المعرض. وتعليقات الطفلة حمراء الشعر وملامح وجهها والشعور بأنّها تتكلّم وحيدة لنفسها... وإنّي أحتفظ بالبطاقات التي اشتريتها من الدكّان. وبينها بطاقة للوحة: داخل مع صورة. وقد يكون من الأوفق أن أعرضها وأدعها على الطاولة لكي أعبّر عن نفسي بشكل أفضل. لكن، يجب عليّ بوجه خاصّ أن أوضّح جيّداً أن الانفعال

في البدء داخل المؤسسة لم يتجاوز هذا الحدّ، وإن أثارت كلمات الطفلة وملامحُها مشاعري. إنها طفلة تحتفظ بسرّ، وهذا فحسْب. إلى أن أدركت بعدئذٍ لمّا احتضنت المعلّمة الطفل المصدوم بين ذراعيها في الشارع والطفلةُ ترتجف كورقة شجرة، أنّ تلك القصّة ليست من نسج خيالها. ثمّ أنتقل فوراً إلى وصف الطفلة ذات الشعر الأحمر. عمرها بين تسع سنوات وإحدى عشرة سنة. وتلبس معطفاً مطريّاً له قبّعة حمراء أيضاً... «الآن تقصّ علينا قصّة ذات القبّعة الحمراء، ثم بعد ذلك بيضاء الثلج». كلّا! خير لي ألّا أذكر لون المعطف، وألّا أفعل شيئاً على الأقل، بينما أقترب بخطا كبيرة من الفندق ومن المخفر في طريقي إليه، ويأخذ الخيال بإلحاق الضرر بي. لأنّ المفتّش أو مساعد المفتّش وآخر الظرفاء ممّن يصغون إليّ، لن يسهّلوا مهمّتي. ولا أدري لِمَ أتصوّره على هذا الشكل: رياضيّاً ذا عضل ملاطفاً وفيه عجلة ملحوظة ليعود إلى قاعة الجيمناز التي ما كان يجب أن يخرج منها. وأرجّح أن يكون ذلك بتأثير السينما أو المسلسلات التلفزيونية ولا فرق بينهما. لكنّي بهذا الشكل لا أجد وسيلة. فأنا أردع نفسي قبل أن أتكلّم وقبل أن أعدّ أيّ ادّعاء يمكن تصديقه، وأدخل المبنى من غير أدنى قناعة، أدخل مهزومة سلفاً، وإن لم يضِعْ بعدُ كلّ شيء. أريد أن أفكّر أنْ ليس كذلك. لنتخيّلْ للحظة أن أحد أفراد الشرطة العديدين ممّن يسيرون تلك اللحظة في الدهليز، عرفني بمصادفة من مصادفات الحياة. أو أنه يعرف شيئاً عنّي على الأقلّ. ربّما لا يتعرّف إلى شكلي الفيزيقي، لكنه نعم، يعرف اسمي. وعند ذلك، يقرّر أنْ يتكفّل شخصيّاً بحالتي أيّاً يكنِ الأمر. أو ربّما يصغي إليّ. فإنّ هذا يغيّر الأمور. وأرى نفسي مرة أخرى معتذرة، معترفة أني أفتقر إلى الأدلّة مشهرة بطاقة: داخل مع صورة. كلّ ذلك بشكل طبيعي جدّاً من غير أدنى ضيق وبتواطؤ سرّي يقوم عادة بين المؤلّف والقارئ.

لكن، كيف سيكون ردّ القارئ المُفترض؟ سوف يبتسم. والشرطيّ المتأهّب مسبقاً سوف يبتسم.

- ذلك أنّك مفرطة في الحساسيّة. لذلك أنت كاتبة.

- كلّا! ذلك لا يصلح لي. ربّما كنت شيئاً ما أكثر مهنيّة.

- ليس لدينا أدنى دليل سوى كلمات أمام لوحة، وخوفٍ مُضخّم عند رؤية حادثٍ حدث لزميل. إنها طفلة عاطفية جدّاً.

وقد يكون ذلك صحيحاً. لكن، لِمَ خطر لها أن أبويها يريدان قتلها؟ قتلها هي أم الطفلة في اللوحة؟ والأمر سواء. ثمّ السبب. لقد رأت أشياء ما كان يجب أن تراها. هذا ما كانت تقوله على الأقلّ.

- ألم يخطر لكِ التفكير فيما تكمن هذه الأشياء؟

نعم، خطر لي ذلك، وخطر للمعلّمة الأستاذة أو الدليل أيضاً. لكنّ التفكير مضى سريعاً كالسهم. والآن يساعدني القصص البوليسي التخيّلي.

- على الأرجح أنّها فاجأتهما في السرير في وضع...، أنت تفهمني.

ربّما كنتُ على صواب. فقد دخلت حمراء الشعر مخدع أبويها في وقت ما كان لها أن تدخل. وخلطت حركات الغرام بعنف وعدوانٍ وصراعٍ خشن... فطردها الأب الغاضب من الحجرة من غير احترام، أو طردتها الأمّ. أو الاثنان يقيناً، لأنّها تتّهمهما، تتَّهم أبويها سواء بسواء. ومن الممكن أيضاً أنّهما هدّداها بعقاب. لكن... والموت؟

- هنالك طفلات ذوات خيال خصب. لو تعرفين!

ومحوت الشرطيّ القارئ بهزِّ رأسي. ولا هذا يفيدني كثيراً. أو ربّما نعم، استعملت ذلك بسذاجة لأتكيّف مع الفكرة مرّة واحدة. وأن أقبل أنْ لا أهميّة تُذكر لواقعة عبوري في أوّل غزوة باب المفوضيّة منهكة، من

غير حجج ولا قرار ولا خطاب وكأنّ كل شيء قد ضاع مسبقاً. وما حدث هو أنّ كلّ شيء قد ضاع في الواقع مسبقاً. ولا الشرطيّ المُتخيَّل الذي استملته بنيّة حسنة، استطاع أن يعمل شيئاً لعلاج الأمر. «إنها طفلة واسعة الخيال وعاطفيّة». هذا ما لدينا. ولا أهميّة لأيّ شيء آخر قد تكون شاهدته الطفلة واكتشفته ما عدا الألعاب الحميمة في المخدع، وإن بدا (وهذه حالة افتراضية) رهيباً جدّاً ومخجلاً حتى يجعلها تخاف طوال حياتها.

وتابعت طريقي. وكرّرت على نفسي أنّي في الأساس لم أفكّر قطّ جدّياً بأن ألجأ إلى الشرطة. فإذا كانت الحياة غاصّة بالسرابات فلا أسهل من صبّ الشكوك على بريء. ولقد ذُعرت من نفسي وممّا خطّطت منذ لحظات للقيام به وإن يكن في الذهن فقط. وهو تصديق تخيّلات ممكنةٍ تتخيّلها طفلة، والإشارة بإصبع الاتّهام إلى أبويها ذاتهما. إنه عمل غيرُ مسؤول ولم يتجاوز ولن يتجاوز التخييل والتفكير. لأني أغادر شارع البرادو وأبلغ شارع موراتين -نعم، موراتين- ولم تخنّي الذاكرة. وأميّز على بعد أمتار قليلة منّي مخفر الشرطة الذي لن أدخله أبداً. في الباب شرطيّان يتحادثان. قد يكون ذلك خداع حواس، لكن، من مكاني، من المسافة التي تفصلني عنهما، بدَوَا لي مألوفين بشكل طريف. أحدهما طويل، ومغرور ومُعجب بعضلات صنعها الهوس في الجيمنازيوم. والآخر على العكس منه، صغير باسم، له مظهر من ينتظر انتهاء يوم العمل ليشرع في المطالعة كالممسوس.

أخذت أمتعتي من الفندق. هي حقيبة أعلّقها بكتفي. وتوجّهت بخطا سريعة إلى محطّة آتوتشا. لمّا وصلت كان القطار فائق السرعة على السكّة. فركضت ركضاً لم أركضه منذ سنين. ولمّا بلغت مقعدي سقطت منهكة. وبدا لي التفكير لحظةً في فوتِ القطار كارثة. وكأنه نهاية الدنيا. وفكّرت

الآن أنّ «كلّ شيء محال!». والثابت أنيّ أشعر والقطار فائق السرعة يسير شعوراً غريباً بالانشراح. ولا أسأل عن السبب. لكنّ حركة آليّة تكفّلت في الحال بالكشف عنه. فقد كانت يداي بسطتا المنضدة الصغيرة وأخرجتا من الحقيبة الظرف الذي أحفظ فيه بطاقات المعرض. واستعرضتها بطاقة بطاقةً إلى أنْ توقّفت عند ما يهمّني. وما أظرف ما بدا لي الآن! لقد لبثت الصباح كلّه إزاء لوحة وما يزال المشهد يثير مشاعري وكأني أراه أوّل مرّة: الحجرة المُكربة والباب الموارب والشكل المُقعي ممسكاً برزمة، والسرير المسيطر... ولربّما شعر بشيء مشابه الرجلُ الذي له عنق كعنق الثور وهو يوشك أن يقتحم اللوحة. ولقد ابتسمت لمّا تذكّرته، وقلّدته ثواني معدودات بلصق عيني بالبطاقة قبل أن أحفظها. لكنّني لم أستطع أن أضعها داخل الظرف واستعدت نظرة الطفلة من لحم وعظم آخر مرّة على شكل وداع. وجعلتها تركع إلى جانب السرير مرتدية معطفها الأحمر. ومرّة أخرى تكون ذات القبّعة الحمراء خائفة. والآن هي بطلة اللوحة الزيتيّة. هي التي تخاف وتختبئ. وتخطّط للهرب... يقيناً أنا مسافرةٌ بسرعة تبعث على الدوار، ومدريد تبتعد عنّي أكثر فأكثر، فسمحت لنفسي أنْ أرجع إلى فرضيّات كنت نبذتها. وفكّرت في ما اضطُررتُ إلى مشاهدته حتّى أعرّضها للخطر إلى هذا الحدّ. ففي الجريمة يمكن التغطية على جريمة بجريمة أخرى فقط. فكّرت في شكل أبويها. وهما زوجان من غير وجه يدبّران في حميميّة البيت مكيدة هي أكثر الأشكال كيداً وهو التخلّص من ابنتهما. أنا مرّة أخرى في نقطة البداية. ولا مفرّ من ذلك. فتكوّمت الطفلة على نفسها في الغرفة المُكربة. ولم يبق لي أدنى شكّ في أنّ الخطر حقيقي وأنّ لمخاوفها أساساً. فأُخرج ورقة وقلماً من الحقيبة. أأكتب رسالة؟ رسالة من مجهول؟ أو رسالة موقّعة أقصّ فيها بأكبر صفاء ظنوني خطوة

خطوة؟ هذا عبث مضحك. وأعرف ذلك باستفاضة، لكنّ الورقة والقلم ما يزالان على المنضدة إلى جانب البطاقة. وكأنّهما يحثّانني على أن أتابع وكأنّهما ينتظران شيئاً. ربّما لهذا السبب فكّرت وأنا أنزع غطاء القلم في عنوان: داخل مع صورة. وقمت بالشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقوم به: أن أكتب قصّة.

نهاية باربرو

telegram @soramnqraa

اكتشفت إحدانا وهي صغيرة إمكانيّة أن تنظر ولا ترى. كان ذلك في قرية جبليّة ذات يومٍ من أيّام الصيف، عثرنا فيه على قطّ مقتول بينما كنّا نلعب مع أترابنا. ولم تكن أيّ واحدة منّا نحن الثلاث قد رأت قطّاً مقتولاً قطّ، خاصّة قطّاً ضخماً ضخامة ذلك القطّ، وسْط بركة من الدم وعيناه مفتّحتان وساكنتان كعينَي دمية... لكنّ الرؤية لم تدم غير ثوانٍ. إذْ إنّ أحداً ما أطلق صيحة ذعر. وبدأ الركض والصياح. ومن مجموعة الصيف الكبيرة ظلّ قرب الحلقة الحمراء أكثرنا شجاعة: فقط أكبر أفراد الزمرة وواحدة منّا.

ومع ذلك وعلى الرغم من مرور الزمن، لم يتضّح لنا بعدُ مَنْ مِنَ الثلاث أطلق صيغة: انظر من غير أن ترى! واعتقدنا جميعاً اعتقاداً راسخاً أننا نتذكّر ذلك. كانت عيوننا تنظر بإمعان إلى بقايا الحيوان النازف، وذهننا شارد على بعد فراسخ وفراسخ. لكنّ الثابت أنّ تلك المهارةَ الصغيرة كفّت سريعاً عن أن تكون حكراً على واحدة منّا. وإنّما مضت فتحوّلت إلى فنٍّ عائليّ، ومددنا الأمر في الحال تقريباً إلى مواقف يوميّة خالية من كلّ تضخيم. ومارسناه في المدرسة وفي صفوف مضجرة على وجه خاصّ

تبعاً في الظاهر لخرائط وسبّورات وشروح وتوبيخ. فلم يكتشف أحدٌ أدنى شرود ولا شيء على الوجوه يشي بالخديعة. وجعلناه بحراً من الخير. كنّا هناك ولم نكن. وكنا نشعر بالفخر كما نشعر اليوم عند تذكّره.

لأنّنا تذكّرناه للتوّ هكذا فجأة ومنذ لحظة. وكلّ شيء يشير إلى أنّه سيكون لدينا فائضٌ من الوقت للرجعة إلى القطّ المقتول. ونتوقّف عند كلّ لحظة أخرى من الماضي، ونقوم بإحصاء ذكريات حتّى نكتب كتاباً. فقد سجّلت الموظّفة التي عُنيت بنا أسماءَنا وقارنتها بالأسماء في لائحتها، ونظرت إلينا بإمعان (وربّما كانت هي تنظر من غير أن ترى)، وسألت: «أأنتنّ أخوات؟»، وما كان السؤال بليداً كما قد يبدو. ففي ورقتها توجد أسماء العماد والكُنى ذاتها. لكن، ما كانت المرأة الصالحة تريد قوله في الواقع: «توائم؟»، وبدا الأمر طريفاً. ففي صغرنا ما كان يشبه بعضنا بعضاً كثيراً. أمّا الآن، فإنّ الناس على العكس، يمكن لهم أن يشكّوا ويخلطوا أيّاً منّا بالأخرى، كما الموظّفة ذاتها قبل أن تقرأ تاريخ ولادتنا. والحال أنّنا أجبنا: «أخوات». فقادتنا إلى هذه القاعة الموحشة.

«اجلسن من فضلكنّ!» -قالت. وأشارت فوراً إلى باب في الخلف يُقرأ عليه: يُمنع الدخول- «خلال لحظة قصيرة سوف أجعلكنّ تعبرنه».

وأتى على هذا نصف ساعة. لحظة قصيرة أُتيح لنا فيها الوقت أن نثرثر ويقصّ بعضنا على بعض قصّة حياتنا منذ أن التقينا آخر مرّة ونستعيد حكايات كحكاية القطّ، ونضيع أخيراً في ألف لفّة ولفّة حتّى لا نواجه السبب الحقيقي لوجودنا هنا. والسبب هو باربرو. باربرو مرّة أخرى. لقد دعتنا باربرو إلى هذا الاجتماع الطارئ الذي ما كان يبدو فيه خلافاً لكلّ دليل، ما لا يمكن تأجيله ولا هو ملحّ، لكن ما كان بمُستطاعنا أن نخدع

أنفسنا زمناً طويلاً. ففي لحظة ما سيُفتح الباب ويجب أن نكون على استعداد للأسوأ. لكن، ماذا يكون الأسوأ؟

هذا ما لا نعرفه.

***

ونظنّ الآن أنّ الأسوأ بدأ منذ زمن بعيد كأنّه حكاية من حكايات الجنّيات: «كان ذات مرّة عينان من الشمال...» قصّة دامت يوماً واحداً فقط. لكنّه كان يوماً سعيداً ولن ننكر ذلك. باربرو أو عينا الشمال دخلت حياة أبينا لمّا كان بأمسّ الحاجة إلى الحنان. لذلك استقبلناها بأطيب نيّة، وبأذرع مفتوحة. كان والدنا ما يزال رجلاً جذّاباً، وقد ترمّل منذ سنين كثيرة، وأصبح لبناته وقد كبرنا في العمر، مهنة وأصدقاء وحياة خاصّة. وما كنّا نمكث في البيت أكثر من الوقت الضروري. وكنّا نحبّه كثيراً، بالطبع كنّا نحبّه. لكنّه حبّ لم يكن من طراز الحبّ الذي يحتاج إليه والدنا. فقد قال لنا في إحدى المناسبات: «أنا رجل. فلا تعرفن كم أنا راغب في لقاء امرأة مناسبة لأقاسمها الحياة». لم يكن مهيّأً لاعترافات من هذا النوع، والشكوى من الوحدة أو ليجعلنا مشاركات في مشاريعه. لكن، وعلى الرغم من كلّ شيء، ما كنّا نولي كلماته أدنى أهميّة. ونفكّر -ثم سنتذكّر ذلك أكثر من مرّة- أنّه كان يقول ما قاله ليعتذر، ولكيلا تفاجئنا الواقعةُ غيرُ المُنتظرة بأن يخرج سريعاً كلّ الليالي ويتحدّث بالهاتف باستمرار، أو يقضي معظم نهايات الأسابيع خارج البيت من غير أن يبيّن لنا أين. وما كان يُقلقنا ذلك قطّ. وإنّما على العكس، كان يُفرحنا. كان أباً ممتازاً ويحقّ له الآن أن يعيش حياته. فسمعناه ذات مساء من وراء الباب الموارب بينما كان يتحدّث بالهاتف، فبدا لنا أنّه أصبح عضواً في أحد النوادي وأنه يجتمع

هناك مع أصدقاء، وأنّ قضيّة «امرأة تقاسمه الحياة» لم تكن إلّا تسويغاً، وحديث خرافة. وإذْ لم يكن يجد تلك المرأةَ المباركة في أيّ جهة، فقد صمّم على السهر والقصف وقضاء الوقت بمتعة.

لقد عاد إلى الشباب عشر سنوات في مدّة أشهر معدودات. فجدّد ملابسه وبدّل حلّاقه، حتّى أعلن ذات يوم: «أريد أن أقدّمكنّ إلى صديقة». وبعد أسبوع طلب إلينا أن نُعدّ عَشاءً. يجب ألّا يكون باذخاً ولا بسيطاً أيضاً. هو شيءٌ ما وسطٌ بينهما، يكون مقياساً حقيقيّاً لمهارتكنّ. «سوف تُعجبن بها وأنا على يقين من ذلك»، قال باسماً. «وأنا سأشعر بالفخر بطفلاتي الثلاث». نحن كنّا طفلاته الثلاث. وشرعنا نحن الثلاث في العمل فأعدَدنا رقائق الحلوى، وسمك الراب مع جراد البحر، وفتائل اللحم بالخردل مع بطاطا في الفرن، وجيلاتي منزلياً بالشوكولا والزبيب. وتكفّل والدنا باختيار النبيذ. وفي التاسعة ليلاً هنّأنا وقد أُعدّت المائدة، على الغطاء وأدوات الطعام. ولقد ترجمنا كلامه على التمام. لا شيء خارق للعادة ولا هو عاديّ أيضاً. تلك كانت مائدة توحي بـ«دفء البيت». نعم، هذا ما قاله: «دفء البيت». ونظر إلى الساعة. كانت المرّة الخامسة أو السادسة التي كرّر فيها الحركة. أي، النظر إلى الساعة وكأن عقرب الدقائق قد توقّف. وكأنّ الزمن يقاوم السير قُدُماً، وأنّه هو وحده وبقوّة عينيه سيحصل على أن تستأنف عقارب الساعة جريانها. كان منرفزاً ومهموماً كأنّه طفل صغير. لم نشأ أن نسأله كيف هي صديقته؟ وما عمرها؟ وأين عرفها؟ وآثرنا الانتظار. وفي الساعة التاسعة والربع رنّ الجرس. ففتح والدنا الباب. وعلى عتبة الباب ظهر شكل باربرو الممشوق. حينئذٍ أصبحنا (وما نزال) لا نقول للأب: «أبونا».

***

لقد أُعجبنا بباربرو ووجدناها جميلة وجميلة جدّاً. وقد عقدت شعرها الأشقر على شكل ذيل حصان. وكانت ترتدي ثياباً بطريقة لا تدقيق فيها. وكانت تنظر إلينا بعينين ضخمتين زرقاوين شفّافتين تقريباً. إنهما عينا الشِّمال الجميلتان. وكذلك كانت قامتها دلالة على الشمال. وكلّ ما فيها كان ينتمي إلى الشمال بأحرف كبيرة. أمّا والدنا فقد تحوّل إلى جانبها إلى أعظم نموذج معياري للجنوب إطلاقاً. فهو أسمر اللون، قامته متوسّطة الطول وعيناه سوداوان وفوداه فضّيّان... هو سيّد كهل وما يزال مظهره حسناً، ترافقه شابّة ذات قَوام إسكندنافي ذي طول جميل. لأنّ باربرو كانت أحدث سنّاً إلى حدٍّ ما من أبينا، وإن لم يكن ذلك مفرطاً كثيراً حتّى لا يخطر ببال أحدٍ ما، بحسن نيّةٍ أم بسوئها، فيسأل ما إنْ كانت تلك ابنته. وكانا يشكّلان زوجاً جيّداً، بارزاً للعيان. إنّهما ثنائيّ يوحي باليخوت والترف والعطل الدائمة وبأجواء دوليّة، وبوجه خاصّ أنّها فرصة ثانية سنحت. ولا يوجد شكّ في ذلك، على الأقلّ، من جهة والدنا. باربرو التي جاءت من حيث جاءت، سقطت من السماء.

«أنتنّ» -قالت باسمة وحاولت أن تتعرّف إلى ذوات الأسماء الثلاثة التي كانت تعرفها سماعاً- «أنتنّ: بيل... لوث... مار!».

وقد وُفِّقت في ذلك. فضحكنا وكنّا ننوي أن نتلقّاها بقبلة؛ لكنّها تقدّمت ومدّت لنا يدها. أمّا هو فقد قبّلته، في المقابل، على وجنته. وتذكّرنا أن التبسّط في كثير من الأوساط يقتصر على الأقرباء أو الأصدقاء الحميمين. وربّما شكّل والدنا حسب هذا المظهر الأخير، جزءاً من هذه الفئة.

«ما أجملَ هذا كلّه!» -قالت بنبرة ساحرة- «وما أحلى هذا البيت!».

وظهرت المائدة كما كان يرغب فيه أبونا. وكان دفءٌ، دفء البيت،

هذا الذي كان بدأ حسب كلماته، من الغطاء والأطباق. وامتدحت باربرو الخمور، واستطعمتِ الأطباق. وأثنت على سمك الراب مع جراد البحر، وطلبت وصفة صنعه. وقالت إنّها تغبط والدنا على طيب اهتمامنا، وهنّأتنا. فقد كنّا طبّاخات ممتازات، وبنات محبوبات. أمّا هو فكان يبدو سعيداً وفخوراً بمادّة مزدوجة: ببناته الثلاث، وبباربرو. أو بالحَرَا، بالانطباع الجيّد الذي تركته باربرو في بناته الثلاث. لأنّه هكذا كان الحال. فالصديقة الشمالية غزَتنا من أوّل مرّة وأدركنا، من غير حاجة إلى أن نسأل شيئاً، أنّه هو قد خطر له شيء مماثل. لذلك كان ينظر إليها مفتوناً. ولذلك شكر لنا بعينيه نجاح العَشاء. ولاحظنا أنّه قد كان حدّثنا منذ أسبوع خلا تقريباً وهو حالم، عن رغبته في أن يجد امرأة تقاسمه حياته. وكان عليه أن يبذل جهداً ليُخفي فرحه ويكبحه. وهذه المرأة موجودة الآن وتُدعى باربرو.

وودّع بعضنا بعضاً. وكنّا نحن هذه المرّة من مدّ اليد أوّلاً مُخلِّفاتٍ في الهواء إمكانيّة لقاء آخر. وطلب والدنا المصعد وعرض عليها أن يرافقها. وسمعناه من وراء الباب المغلق يضحك ويسأل بصوت أعلى من المألوف، وحماسيّ قليلاً: كيف بدا لها طفلاته الثلاث؟ وأضاف: «طفلاتي الثلاث العزيزات!».

«عبقريّات!» -أسرعت باربرو في الإجابة. ثمّ أضافت فوراً بنغمة تتراوح بين الحنان والسخريّة، وببطء، ببطء شديد مغالية في نبرتها أو إعجابها: «بابي، بابي، بابي(*)!».

ولم نشأ أن نسمع المزيد. فقد توقّف المصعد في المصطبة. وغادرْنا وقد احمرّت وجوهنا خجلاً، مركزَ التجسّس قرب الباب. وسوف نقول له

(*) Papi كلمة عامية تُطلق على الأب بدلاً من كلمة Papa. وكأنّها تريد القول إنهن طفلات صغيرات. (م).

ما إن يعود، سنقول إنّ عليه أن يُخفي فرحه وإن عليّه بوجه خاصّ أن يكفّ عن مناداتنا بـ«طفلاته»، في بعض الظروف على الأقلّ. وظروف الليلة كانت أكثر من استثنائية. أهو بحاجة إلى أنْ نذكّره بذلك؟ جمعنا فناجين القهوة وتناولنا قدحاً آخر من الخمر، وانتظرناه جالسات حول تلك المائدة في دفء البيت الذي طالما أثنى عليه. فقرّرنا تلك اللحظة أنّ من الخير أن نسكت وندع الأمور كما كانت، فهو لن يكون أوّل أبٍ ولا آخر أبٍ يُحبّ بناته حبّاً جمّاً. والأفضل أن تفهم باربرو مع نكاتٍ صغيرة جانبيّة، الأمر على هذا الشكل منذ اللحظة الأولى. ثمّ أخذنا نضحك. ولِمَ ننتظره وكأنّه صبيّ صغير؟ وأخيراً، لِمَ كنّا نخشى أن نتحوّل إلى عقبة؟ عقبة أمام أيّ شيء؟ والشيء الثابت الوحيد هو أنّ العشاء كان ناجحاً واستحقّ العملُ العناءَ وشعرنا بالسرور والتعب في آن واحد. وختمنا السهرة وذهبنا لننام. لكن، «توته توته، خلصت الحدّوتة!» لم تستطع أيٌّ منّا نحن الثلاث أن تُغمض عيناً تلك الليلة.

***

وبعد أسبوع تزوّجا في حميميّة قصوى وفي أعظم سرٍّ إطلاقاً. وكنّا أوّل من علم بذلك (إذا استثنينا القاضي والشهود). قالا: «تزوّجنا لتوّنا. كيف يبدو لكنّ؟!». لم يبدُ لنا جيّداً ولا سيّئاً. ولم يُفرحنا ولم يُحزنّا. ولا هما أتاحا لنا الوقت. وهذا ما حدث. لأنّ الجرس رنّ بعد إعلان الخبر. وفتحنا الباب، فدخل البوّاب... ومعه أربع حقائب كبيرة، وبضع حقائب يد، ودرّاجة ثابتة، وبضعة معاطف ملفوفة بكيس شفّاف... وقام الرجل المسكين بثلاث رحلات قبل أن يُفرغ المصعد. هنا، نعم، هنا أخذنا ندرك. وأدركنا أنّنا كنّا نشهد غزواً مدبّراً عن سبق تصميم، ولم يزعج أحدٌ نفسه بأن يستشيرنا، أو أنّ رأينا، حسب كلّ المظاهر، لن يكون له

وزن في المستقبل. وأصبحنا حجراً من غير قدرة على الكلام، حجراً ومن غير كلام. لأنّ الحجارة لا تتكلّم ولا تشعر وليس لها انفعالات. الحجارة موادّ معدنيّة وتركيبٌ قاسٍ ومتماسك، مثلها كمثلنا ذلك اليوم. كنّا ثلاث صخرات موجودة في بهو البيت، بينما هما كانا يجرّان الحقائب في الممشى ضاحكَيْن موشوشين بكلماتٍ خافتة، ويهدلان كحمامتين في الشبق. وهذا سبّب لنا الإزعاج أكثر من كلّ شيء، واستطاع أن يوقظنا من السحر الصخري ويعيدنا إلى الحياة. هو نوع من الهديل كان يصل إلينا ويملؤنا بخجلٍ غريب. آليبوري Alipori(*)، ربّما كانت أوّل مرة في حياتنا ندرك البُعد الحقيقي لكلمة «آليبوري». لذلك كلّه (للهديل، وللخجل الموضوعي) قرّرنا النزول إلى الحانة على الناصية من غير أن نتحدّث في ما بيننا تقريباً، ومن غير أن نجرؤ على أن ننظر إلى أنفسنا. ونظّمنا في حرارة الأقداح مشاهد وأفكاراً. وقسّمنا الفيلم إلى أجزاء متسلسلة. إنّه إيقاع رجراج مع بطلين وحيدين هما باربرو ووالدنا. ولمّا تذكّرنا ظهورها أوّل مرة في عتبة الباب منذ أسبوع تقريباً، بدا لنا أن قروناً انقضت منذ ذلك الحين حتى الآن. فلا هما هما ذاتهما، ولا نحن نحن أيضاً.

لأنّ تلك الليلة المشهودة (منذ أسبوع تقريباً) بدا فيها كلّ شيء كما كان والدنا يرغب فيه. فقد أُعجبنا بباربرو. ووجدناها جميلة وجميلة جدّاً بشعرها الأشقر المعقود على شكل ذيل حصان. ولبسها بطريقة غير رسميّة ناظرة إلينا بعينيها الضخمتين الزرقاوين الشفّافتين تقريباً، بعينيها عيني الشمال الجميلتين... لكن، كان هناك ما منعنا من النوم، وعزوناه في

(*) هو الخجل الذي يشعر به المرء مما يقوله ويفعله الآخرون. مقابل الخفر أو الحياء الذاتي، كخجل الأطفال من الغرباء. وسنطلق على النوع الأوّل اسم خجل موضوعي والآخر ذاتيّ. (م).

اليوم التالي إلى التعب، والفخر بالعمل المُنجز جيّداً، وإلى الساعات التي قضيناها في المطبخ قرب الفرن نراقب فيها البطاطا أو رقائق الحلوى، أو في غرفة الطعام ونحن ننتقي أدوات المائدة والغطاء والأطباق. هكذا كنا نعتقد حينئذٍ. والآن أصبحنا نعلم أنّ الأمر لم يكن كذلك. ففي الليلة المشهودة كان لا بدّ من وجود شيءٍ ما -كلمة، تفصيل، حركة- مثل ملاحظة ناشزة أو صرير خفيف، أو كلمة سخيفة تجاهلناها بسبب الحماس الذي كنّا فيه، وظهرت في الليل مقنّعة بالأرق ومموّهة. طلبنا كأساً ثانية وتابعنا تحليل السهرة. وكان هذا هو الهدف؛ أنْ نتحقّق ممّا كان يمكن أن يكون ما سكتْنا عنه بغباء؛ أن نتحقّق من الوسيلة التي كان يمكنها أن تجعلنا على حذر. لكن، سُررنا أيضاً واكتسبنا الجرأة وعدم الاكتراث الكافيين لكي نعود إلى البيت ونتحمّل منذ الآن أنّنا سنكون خمسة. إنه تعايش مفروض فرضاً ونقصٌ في الاحترام.

أم يُستحسن أن نقول إنه ظلم؟ ولمّا تغلّبنا على المفاجأة الأوليّة، تحوّل وجود باربرو إلى عنصر مثير للاضطراب، وإلى عامل غير مُتوقّع يعيدنا إلى أقسى أشكال التواري، وكأنّنا غير موجودات. وكأنّما نحن ممثّلات فائضات عن الحاجة، فلا نتكلّم على خشبة مسرح هو بملء الحقّ ملكنا. وهنا كان الخجل الموضوعي يتحوّل منذ لحظة إلى خجل ذاتي. والأفضل أن نقوم بالممكن لننساه. لكن، كنّا ثلاثاً. وفي أزواج العيون الثلاثة، لاح بريق غضبٍ لم نستطع أن نتحاشاه. كذلك لم نستطع أن نحرم أنفسنا من أن نتذكّر بصوت عالٍ أنّ البيت بيتنا، بيت البنات. ولئن كان القانون يسمح للمغتصب أن يعمل ويقوّض فيه ما دام حيّاً، فما كانت توجد وسيلة إلّا أن نناقش هذا الأمر في ما بيننا نحن الأربعة كالعادة دائماً، وكما كنّا نصنع

طوال حياتنا في مسائل ذات أهميّة. لكنّ ذلك اليوم لم يكن «كالعادة دائماً». وإذْ أصيبت البنات بعدوى هذا الهذيان، فقد انتهينا أوّل مرّة في حياتنا إلى أن نُخرج صكّ المُلكيّة وندافع عنه كحجّة أخيرة.

«يا للخجل!» – قالت إحدانا.

نعم، كنّا نشعر بالخجل، لكنّ الغضب والذهول كانا ما يزالان أقوى منه. شربنا آخر كأس وشرعنا نتخيّل انتقامات يوميّةً صغيرة. فماذا لو دعونا أحد الأصدقاء ليشاطرنا السكن؟ وماذا لو تحوّلت الشقّة فجأة إلى بيت جوار، وفندقٍ مقيت يقطنه أربعة أزواج متكدّسين! وماذا لو جعلنا البهو مكاناً لتعليم الرقص؟ وإنشاء أوركسترا قرع في المطبخ؟ لكن، حتى هذه التخيّلات الطفلية ما كانت تهدّئنا. بل على العكس، كلّما أعمرنا البيت بالأصدقاء واحتللنا مناطق مشتركة فيه بطبول «الماراكا»(*) أصبح الاشمئزاز أعظم والغضب أشدّ. فأعدنا مرّة أخرى تسلسل الأحداث، أحداث العشاء باحثين عن المُعطى، عن الكلمة السخيفة، عن تفسير لموقف أبينا غير المتوقّع، وعن دليل عمّا هو آتٍ. واتّفقنا على أنّهما ربّما كانا قرّرا تلك الليلة كلّ شيء. أو كلّ شيء تقريباً. لأنّنا عشنا مرّة أخرى فجأةً لحظةَ دخول الجميلة باربرو وذيل حصانها والعينين الضخمتين الشفّافتين، أو أصبحتا أضخم لمّا طافت في البهو وقالت بنبرة ساحرة: «ما أجمل هذا كلّه! وما أحلى البيت!».

ربّما كان المُعطى هنا، في هذه النقطة لمّا أضافت المدعوّة تفصيلاً إلى ما قرّراه أنّهما سوف يتزوّجان ويعيشان معاً، كما كان يبدو ذلك طبيعيّاً. لكنّهما سيقومان بذلك –ويا للفكرة المفاجئة الرائعة!– سيقومان بذلك

(*) قرعة مجفّفة (أو خشخيشة كالقرعة) تشتمل على بذور جافّة تُستخدم أداةً موسيقية. (م).

في شقّتنا. وما كان أيّ مكان يبدو أوفق لهما. لذلك، لمّا عشنا اللحظة مرّة أخرى، أصبح لا يخطر ببالنا الآن أن نَصِفَ عينيها بأنّهما زرقاوان ضخمتان، عينا الشِّمال الجميلتان (ترافقهما كلّ إلخ... في الدنيا)، وإنّما هما ببساطة عينان نهمتان. وأصبحنا على قناعة الآن أنّ باربرو طافت في البهو بعينين نهمتين.

لكن، أهذا كلّ ما حصلنا عليه من غير أن نتنبّه؟ فهززنا أكتافنا. ربّما نعم، وربما لا. لكن، إن كان الأمر كذلك (والكحول كان يُضفي مصداقيّة على كل ما يخطر ببالنا)، فمن السهل أن نتخيّل البقيّة. إذْ لم تلبث باربرو أن أقنعت والدنا بالملاطفات التي اكتشفناها في الممشى. وكان والدنا فريسة سهلة. فريسةً سهلة جدّاً. والسؤال: «أيمكن لرجل أن يصبح أحمق بين عشيّة وضحاها؟» لم يكفّ عن أن يطفو في الجوّ؛ لكن، لم يزعج أحدٌ نفسه في الجواب عنه. لأنّ الجواب هو: «أجل، يمكن». يمكن لرجل أن يصبح أحمق بين عشيّة وضحاها، ويفقد أدواره كما تبدّى لنا منذ قليل فوقُ في الشقة التي سنعود إليها خلال دقائق معدودات. إنها شقّتنا. والآن ما كنّا نشعر بالخجل، لا بالخجل الذاتي (الخفر)، ولا الموضوعي. كنّا أشبه بمكعّب. والآن، نعم أصبحنا حجراً. «أصبحنا مكعّباً من حجر». وغادرنا الحانة من غير أن نستطيع كبح ضحكنا. ثمّ دخلنا البوّابة وطلبنا المصعد ووصلنا إلى البيت، واحتجنا إلى الله وعونه لإدخال المفتاح في القفل. لكنّنا لمّا حصلنا على ذلك، دخلنا بصمت، وكنّا نتقدّم بخطا بطيئة ونحن نشير بأيدينا وكأنّنا في فيلم صامت. وتوقّفنا لمّا وصلنا إلى باب البهو، حذراً أو أدباً، لأنّنا لم نكن ننوي أدنى نيّة في الجدال، وأن نبدو مهذّبات. وقد صنعنا خيراً. ففي ثوانٍ معدوداتٍ كُشف الستر عن المجهول. الستر عن سبب ردّ الفعل و«الكلمة السخيفة» والكلمات التي بدلاً من أن

تجعلنا على حذر، نفسرها خطأ بأنها نكتة وفكاهة غرامية، وعن النهاية المحتومة لموقف والدنا: هما الاثنان معاً من غير أن يتنبّها لنا معتقدَيْن أنهما وحيدان. هو كان يجلس على كنبة مفضّلة لديه وعيناه شبه مطبقتين ومع بسمة سعادة. أمّا هي فكانت تقف خلفه تدلّك نقرته وتداعب كتفيه وتوشوش: «بابي، بابي!».

***

هي كانت تُسَمّيه «بابي» وكان هو يدعوها «حبّي». وكان التعايش مع بابي-حبّي مُحالاً. وقد تحاشينا في البدء المناطق المشتركة: المطبخ والبهو وغرفة الطعام... لكنّ هذا لم ينفعنا كثيراً. لأنّ بابي-حبّي كان يخترق الجدران وكانت ضحكاتهما تتسلّل عبر أيّ فجوة. وشيئاً فشيئاً رأينا ونحن نحتبس في مخادعنا أنّ ممتلكاتنا تتقلّص. بينما كان زحف بابي-حبّي التوسّعي لا يعرف الحدود ولا التخوم. واخترنا أن نحوّل الحانة على الناصية إلى بيت لنا، وندع لهما المجال حرّاً بشكلٍ ما، وفقطْ بشكلٍ ما. كنّا نتناول الفطور هناك كلّ صباح، ونلتقي مرّة أخرى عند حلول المساء، جالسات دائماً إلى الطاولة ذاتها، وهي قرب النافذة المطلّة على الشارع، وهي مرقب نُغبَط عليه يتيح لنا مراقبة البوّابة، ونطّلع على الخارجين والداخلين. وفي ذلك شيء من الأهميّة. وكان القصد أن نتجنّب لقاءها مصادفة في البيت وحدها. لأنّ بقاء أبينا خلال الأسبوع حتّى ساعات متأخّرة في المكتب، يجعل هذا الاحتمال أكثر من ممكن: ويبدو هذا أسوأ ممّا لو كانا معاً. حينئذٍ تتحوّل باربرو إلى أخرى من غير خرخرات ولا كلمات دلال، ومن غير أحدٍ تُغويه وتُلهبه. تكون باردة غامضة شاردة. باربرو وحيدةً تبعث على الخوف.

لذلك سنمثُل ذات مساء في المكتب فجأة هرباً من حضور مزعج. إذْ يجب عليه أن يعود إلى رشده ويُدرك أن لا شيء حسناً يمكن أن يجلبه تعايشٌ قسريّ. وعليه أن يحدّد تاريخاً أقصى، فيبدأ بالبحث عن شقّة لهما وحدهما. لكنّه جرّدنا من سلاحنا ما إن رأيناه باسماً سعيداً ومسروراً بالمفاجأة. إنّه أبٌ مسرور بلقاء «طفلاته الثلاث».

«يا للفرح!» -قال- «ويا للمفاجأة!».

كان صريحاً وكنّا نحن أيضاً كذلك، وبأعذب شكل باذلاتٍ جهداً فوق طبيعي لكيلا يشي صوتنا عند ذكر باربرو بأدنى بغض، أو بأدنى ضجر، حتى أدركنا أنّ ذلك كان عبثاً.

«أنتنّ غير عادلات» -قال- «وأنانيّات. هي لم تكن لها عائلة حقيقية حتّى اليوم».

ثمّ في عبارة غير متوقّعة كأنه وسيط في التنويم المغناطيسي، وكمن يتلو درساً تعلّمه أو ينقل رسالة من الغير:

- أمّا أنتنّ في المقابل، فلم ينقصكنّ شيء قطّ. لقد دلّلتُكُنّ كثيراً.. وإني أخجل لذلك.

كان ذلك وهماً وخداع حواس. وكان والدنا يشرد مرّة أخرى في الماضي، بينما كان ذلك الرجل الذي كنا ندعوه «أبانا»، يستعيد فجأة آخر دور كبير له على المسرح، دور الضّحية الممسوس المسحور، دور دمية في يد امرأته، عينَي الجليد.

***

لكن، فكّرنا، ما كان ينبغي لذلك كله أن يحدث بسرعة كبيرة. فعلينا بالضرورة أن نُتيح وقتاً ما كافياً لتعايشنا، ولحظاتٍ من الشراكة والفهم

والانسجام. مع ذلك، مهما نقلّب في الذكريات فما كنّا نعثر على ما يضمن ذلك التطلّع. فقد نزعت باربرو ما إن تزوّجت قناع الإغراء الذي كنّا عرفناه فيها ذات يوم، ومن غير إخفاء مركّزةً طاقتها كلّها في نسج نسيج عنكبوت حول ذلك الرجلِ الذي طالما أحببناه وأُعجبنا به. هي كانت وسيطه وترجمانه وشريكه الوحيد الصالح. وكانت تتحدّث وتتصرّف باسمه، وتسمح لنفسها أن تخالف كلّ ما نفعل وما نقول. وبعد كلّ شيء، كنّا من الجنوب. وكانت باربرو تبدو أحياناً أنّها تحتقر بعجرفة كلّ ما له رائحة الجنوب على الرغم من أنّها تزوّجت أبانا، إلى أن أخذ الموقف يتحوّل إلى موقفٍ فظّ، فضلاً عن كونه غير معقول. شمال وجنوب كفّا عن أن يكونا مرجعَيْن جغرافيّين لكي يتحوّلا إلى فريقين متخاصمين. فالشمال كان يمثّل المثال الأعلى، يمثّل الخير. أمّا الجنوب فيُشير في المقابل إلى الجهل وإلى غياب الخير(*). هما عصابتان في صراع دائم لأيّ سبب تافه، مع النهاية التي لا تتبدّل لصالح الفريق الزائر. فهذا ما كان يقرّره الحكم أبونا برغبة حسنة أو سيّئة، فهذا لا يهمّ. وكانت باربرو تنظر إلينا حينئذٍ وشرارةٌ من الفخر في عينيها الجليديّتين.

والآن، يبدو لنا هذا مدهشاً. ونسأل أنفسنا ذاهلات: كيف نستطيع تحمّل هذه الحماقة؟ ولم يخطر ببالنا أن نلجأ كإجراء أوّل، إلى مهارات قديمة لتحييدها: إلى أن نحوّلها مثلاً إلى قطّ مقتول عيناه جامدتان ناظرتان من غير أن تريا، ثمّ ننتقل إلى مسافة فراسخ وفراسخ. لكنّنا لم نلبث حتى وجدنا جواباً: ربّما سيكون أشبه شيء بالهرب، وهو أن ننفضَ يدنا من البيت ونتركه بكامله بتصرّف بابي-حبّي. إنّها هزيمة، لأنّ الوضع، إضافة إلى كونه غير مقبول وفظّاً، كان في طريقه ليقضي على أيّ بقيّة من تحمّل

(*) في الأصل غياب الشمال الذي يمثّل الخير كما ورد في العبارة السابقة. (م).

أو تستّر. لذلك لم ننتظر أكثر ممّا انتظرنا ومضينا من جديد إلى العمل في ختام الأسابيع الثلاثة الطويلة من تعايشنا. إلى العمل في البيت وليس في المكتب، والخمسة معاً. وكان على والدنا أن يقرّر. إمّا هي وإمّا بناته. وقد اتّخذ قراراً: لصالح بناته.

ومع ذلك، لم يبدُ ذلك شيئاً شبيهاً بنصر. وهذه المرّة أيضاً وضعا مخطّطاً للأمر. فقد عزما على الاستقرار في الريف، في بيت جميل، ستتمّ عمليّة بيعه في يومٍ من هذه الأيام. والمسكن، فوق ذلك، يتمتّع بمساحة من الأرض سرعان ما سوف يبنيان فوقها بيتاً للضيوف المدعوّين. وسيقولان فوراً: «باستطاعتكنّ المجيء متى شئتنّ». وأريانا صوراً وزيادة من الصور. إنّه مكان مثاليّ للخلوة. لئن كان الخبر مشجّعاً ويُنهي تلك العلاقة الشوهاء، فإنّ شيئاً ما مشؤوماً كان يطفو في الجوّ منذ اللحظة الأولى. إنّه سحابة سوداء ونذيرٌ لنا بأنه موقف واضح مُعدّ مسبقاً بمكر. إنّه حيلة بتوقيع باربرو. لأنّ السرّ المطلق الذي أحاط بشراء البيت حتّى ذلك اليوم، كان أوّل أثر له هو أنّنا نحن -البنات الجاهلات- كنّا سنتّخذ إجراءات تستبق الكشف السعيد. وما كان لشيء أن يحدث كما حدث لو عُرف الأمر. لكنّه حدث، وكأنّما كان أحدٌ ما يتوقّعه. ووضعنا بأكبر طاقة أوراقنا فوق الطاولة وقبل الأوان، وقبل أن ندرك أنّنا وقعنا في فخّ. فها هو ذا كاتالوغ الأضرار والاستياء والمطلب الملحّ بحلٍّ عاجل. وها هي ذي أيضاً الدهشة المُصطنعة، دهشة باربرو البريئة ذات العينين الدامعتين، ومظهر طفلة خادع:

- ما كنت أعلم أنّ وجودنا يجلب كثيراً من المشكلات.

وما كانت تبدو لنا نبرةُ صوتها ساحرة. بل كنّا نراها زائفةً مستفِزّة

مصطنعة. والآن كانت تنقل إلينا الخبر غير المتوقّع، خبر الانتقال، مبالِغةً في إبداء سيما المَسكَنة. إنها مفاجأة. وأصرّت على أنّهما كانا يريدان أن يُفاجئانا فحسب. لكنها الآن، لم تكن تُبدي مظهر طفلة وإنّما مظهر نعجة. نعجة لا حول لها تطاردها ثلاث ذئبات دمويّات. وبهذا الشكل كان ينظر إلينا والدنا منذ تلك اللحظة على أنّنا ذئبات. وقد فات الوقت كثيراً لنرجع إلى الوراء. وإذا كنّا نحن قد كشفنا أوراقنا، فإن باربرو فتحت للتوّ أوراق لعب كاملة، سوى أنّ أوراق لعبها تخضع لقواعد لا نشعر بالقدرة على ترجمتها، إلى الآن. ومع باربرو، وهي صندوق المفاجآت تظلّ «إلى الآن» معلّقة.

وسرعان ما جاء الخراب، الخراب الأعظم أيضاً(*)، ولم يبقَ لنا الآن إلّا أن نبتسم في هذا البهو الموحش الذي نلتقي فيه إزاء الباب الذي نقلنا منذ مدّة غير طويلة إلى باب آخر. بسمة من لا يفهم شيئاً ولا يُدرِكُ شيئاً، لكنّه أخذ بعد سنين عدّة من ذلك، يجد عندها رغبةً ما مجنونة في فصلٍ بائس. لقد ذهبا من البيت وأخذا أغراضهما، وصرّا أفضل سجاد وبعض اللوحات التي جرت حياتنا إلى جانبها... ولمّا أصبحا إلى جانب المصعد، علا صوتُ باربرو من جديد طفليّاً وبريئاً: «بالأمس أفرغت المكتب. إنّه خالٍ. ولم يبق فيه غير صور أمّكنّ...». أقالت: «أمّكنّ؟» أم جرؤت فقالت: «ماما»؟ على كل حال، ذلك طبيعي ومقبول. فأيّ شيء كان يمكنها أن تعمله إلّا أن تدع الصور في مكانها؟ ولسوف نمرّ في أيّ وقت لجمعها. لكن، حتّى هذا -أي جمع الصور- لم يبدُ لنا بسيطاً. لأنّ صور أمّنا الضوئيّة كانت تنتظرنا يقيناً على رفوف المكتب القديم. لكنها مجرّدة ومن غير إطارات ومكوّم بعضها فوق بعض.

(*) الجملة بالفرنسية في الأصل. (م).

عينا الجليد أطلقت للتوّ رهاناً جديداً، رهاناً خسيساً وحقيراً وبائساً. وشعرنا مرّة أخرى بالخجل الموضوعي إضافة إلى استهجان هذه الكلمة (آليبوري Alipori). لكنّنا كنّا نبتسم الآن بعد سنوات طويلة من ذلك. فباربرو اللصّة الطارئة أخذت معها الإطارات. أأخذتها طمعاً في قيمتها؟ أم للذكرى؟ أم لإزعاجنا: «أنا أكرهكنّ. إلى الآن لا أعرف لماذا. لكني أكرهكنّ»؟ لقد أخذتها معها وذهب معها ظلّ الصور الضوئيّة القديمة. لأن سلسلة الأحداث التي جلبتنا إلى هنا، إزاء هذا الباب المغلق الذي له القوّة لفتح ذكريات كثيرة تجعلنا نفكّر في شيء غضضنا عنه الطرف في تلك الأوقات، وهو الاحتمال بأن يكون للأشياء ذاكرة. يومئذ ما كنّا نتكلّم عن هذه الأشياء. أمّا الآن، فنعم. والآن، لم تبقَ في يدنا وسيلة أخرى. فقد أخذت باربرو الإطارات إلى بيتها الجديد ورحل ظلّ أمّنا ضمنها. إنّها عدالة شعريّة أو تاريخيّة. وأحياناً يكون الأمران سواء تقريباً.

***

عن أمّنا كنّا نعرف شيئاً كثيراً، وفي وقت واحد شيئاً قليلاً. كنا نعرف عنها ما كان يحكيه والدنا لمّا كنّا ما نزال نناديه: بابا، وعن الأماكن والظروف الدقيقة التي التُقطتْ فيها الصور الضوئيّة. كنّا نعرف أيضاً لأنّ إحدانا كانت تتكفّل بتذكيرنا بأنها كانت تُسرّ بأن تقصّ علينا حكايات قبل أن ننام، وعن حنانها ومرحها ومحبّة الناس الكبرى لها.

لمّا ماتت كان لنا من العمر خمس سنوات وأربع وسنتان اثنتان تقريباً. لكنّ كبرى البنات الثلاث كانت تتباهى بأنّها تتذكّر بالتفصيل طفولة الاثنتين الأخريين، والبيت الذي وُلدنا فيه، وخاصّة كومة من حكايات الوالدة لم تكفّ –وهذا شيء طريف– عن أن تكبر بمرّ الزمن. إنّها ذاكرتها العجيبة والفيّاضة، أو إنّ رغبة الصغيرتين ومخيّلتَهما كانت تصنع الباقي. كانت

«الأمّ» في ذهن البنات الثلاث أجمل شيء مرَّ بحياتنا، شيء راسخ من غير تهويل ولا تفجّع، وكأنّها ثقل موازن يهبنا الأمان. كانت مرساة تضمن توازننا حتّى في لحظات كهذه اللحظة التي اكتشفنا فيها الصور الضوئية متروكة على الرفوف ومن غير أدنى احترام. لهذا السبب، لن يكون لتحدّي باربرو جواب إلا الاحتقار. وقد تلا التصوّرَ الأوّل تصوّر اللوحات الشخصية، على أنها مادة محتقرة، تصوّرٌ آخر شبيه به جدّاً وإن يكن بمعنى مختلف، فها هي ذي هنا للحظة واحدة فقط «مقاطع» من فيلم مطروحة ليس لنا أدنى اهتمام برؤيته. إنّه مسلسل بطلاه امرأة جاءت من الجليد ورجل سُرقت منه إرادته، وما كانت تهمّنا حبكته، فمع الحدث الرئيسي كان لدينا ما يكفي ويزيد. وهكذا جمعنا الصور ونقلناها إلى البيت وأعدنا لها كرامتها داخل خير الأُطر التي استطعنا الحصول عليها. أمّا ما عدا ذلك وما قد يحصل للزوجين البطلين في الفصول القادمة، فلن ينزع النومَ من عيوننا. ذلك كان قراراً واستراتيجية دفاعيّة ويميناً ثابتة. وصفقنا الأيدي ووقّعنا حلفاً بأن نكون متّحداتٍ دائماً مثلنا كمثل بورتوس وآتوس وآراميس(*)، والملوك المجوس(**) وساحرات إيستويك... وبدايةً نمنا تلك الليلة ملء جفوننا.

***

استعادت الشقّة من غير وجود بابي–حبّي جانباً من ماهيّتها القديمة. هي خليط من بيت ومقرّ قيادة عامّة لم نلبث بعد اختفاء العدوّ المشترك أن استعدنا فيه أسماءنا وحيواتنا. لقد تخلّينا عن «نحن» الأوقات الأخيرة، وعدنا لنكون بيل Bel ولوث Luz ومار Mar. عدنا للجدل أيضاً والاختلاف حول أيّ شيء، ويناقض بعضنا بعضاً، كما كان الحال قبل أن

(*) أبطال رواية الفرسان الثلاثة للكاتب الفرنسي إسكندر دُيْما. (م).
(**) حسب التراث المسيحي هم الذين حملوا الهدايا للسيد المسيح عند ولادته. (م).

تدخل الملكة والثلوج، وقبل أن يتحوّل والدنا إلى الشخص الثانوي في كلّ هذه الحكايات التي كانت تقصّها علينا أمّنا، وما زلنا نستطيع أن نردّدها كلمة كلمة بفضل إصرار كبرى البنات الثلاث إصراراً عجيباً. قصص: ثِنْتيينتا، وهانزل وغريتل، وبلانكانييبس(*)... غير أنّها ما كانت تبدو لنا اليوم قصصاً وإنّما خلاصات ماكرة للسلوك البَشري. وننتهي مع مرور الوقت إلى أن نتعوّدها. وهذه أشياء ملك الزمن بأن يتحوّل اللامعقول إلى عادة. كان والدنا يهتف لنا بين حين وآخر. وكان يحدّثنا بشكل دائم عن إمكانيّة قضاء أيام عدّة معهما في المستقبل. ذلك إمّا أنّهما لم يبنيا بيت الضيافة الموعود، أو أنّهما ما كان يرغبان في ذلك فعلاً. وما كنّا نعرف البيت إلّا عبر الصور. الصور التي جعلانا نشاهدها لمّا لم يكونا قد ابتاعاه بعدُ، وعبر الصور التي تلقّيناها بعد أن أكملا بعض الأعمال والإصلاحات. وكنّا نجد ذلك طبيعيّاً ومعقولاً وملائماً. ولئن فوجئنا في البدء، فقد اعتدنا أيضاً أن نمرّ لا محالة بجمرك باربرو من أجل الكلام مع والدنا. أمّا الذين كانوا أصدقاءه الكبار فيشكون الآن أنْ ليس لهم أدنى صلة به. أهو مُعتقل؟ أم مُقال؟ هذا ما كانوا يقولونه.

لكن، لنختصر الآن. فالزمن يجري والمرحلة التي نتذكّرها الآن ليس لها أهميّة زائدة، بل كانت أعواماً هادئة، أعواماً ملوّنة بالمناقشات المعتادة بين الأخوات، ألغى البُعْدُ فيها مشاكل أخرى. وقد قبِلنا الأمر، إمّا طلباً للراحة أو لأنّنا ما كنّا نملك خياراً آخر. فالعالم موبوء بأوضاع مثل وضعنا، بل حتّى بأسوأ منه. فما كنّا نستطيع الشكوى. يقيناً كانت باربرو تحبّ أبانا على طريقتها. طريقة كانت تُلغي منذ البدء أيّ علاقة أخرى.

(*) ثِنْتيينتا هي سندريلا، وبلانكانييبس هي بياض الثلج، وهما مع «هانزل وغريتل» حكايات خيالية للأطفال كتبها الأخوان غريم. (م).

سواء العلاقة التي كانت تربطه أيّام زمان بأصدقائه، أو بمن لا نزال بناته. إنّه حبّ استحواذي وإقصائي. ونحن ما كنّا نعرف كثيراً عنها، ولا كيف كانت حياتها قبل أن تشكّل جزءاً منّا. لكنّ بعض الكلمات قيلت ذات يوم أصبح بعيداً في مكتب أصبح غير موجود جعلتنا متنبّهات. «هي لم تكن لها عائلة حقيقية حتّى الآن...». هنا يوجد تفسير ممكن: ما كان لها عائلة وما كانت ترغب فيها. أضف إلى ذلك أنّها كانت تبغض كلّ ما لم تحصل عليه، بكلّ قواها. فلمّا غزت والدنا صمّمت على إلغائنا شيئاً فشيئاً حتّى حصلت على أن يقتصر التعامل معنا على مخابرات هاتفية متفرّقة تصبح كلّ مرّة أكثر شحّاً وأكثر فتوراً. حتّى أنّنا لم نحتفل بعيد ميلاد واحد معاً منذ أن استقرّا في الريف. إذْ كانا يزعمان أنّهما كانا مسافرين إلى الشمال، وذلك كلّ الأعوام وفي مثل تلك التواريخ. لكنّ ذلك كان نصف الحقيقة فقط. فما كانا بحاجة إلى ركوب الطائرة ولا قيادة سيّارة مدى أميال وأميال من الكيلومترات في طرقات جليديّة. فمنذ زمن بعيد، نصب الشمال نفسه عدوّاً لنا. والشمال يعيش هنا، داخل باربرو وإلى جانب باربرو. ونتخيّل ميقات الأعياد في بيتٍ غاصٍّ بالشموع المشعلة وأغطيةِ الموائد المزيّنة بصور الأيائل والزحّافات، وأكوام من المدعوّين يأكلون الرنكا والسلمون ولحم الخنزير المشويّ مع الخردل، وبخمورٍ منتقاة، وخبز بالزعفران... ووالدنا يبتسم في إحدى الزوايا وقد سئم الضوضاء، حريصاً وهو المضياف، على أن يخرج كلّ شيء حسب الطلب من غير أن يفهم كلمة واحدة من فوضى اللغات، ومفكّراً أيضاً، وإن يكن للحظة واحدة، في أعياد ميلاد أخرى تزداد بعداً. وفي بناته. كلّا! لا يمكننا على الرغم من كلّ شيء أن نكنّ له حقداً. وذلك مُحال. ولم نتخلَّ قطّ عن محبّته. ولمّا دخل ذات يوم حزين منذ سبع سنوات مستشفى خاصّاً وهو مريض

مرض الموت ما كنّا نفترق عنه تقريباً. كان يبدو أنّه يريد أن يقول شيئاً. وكان يصارع ليأسر بعض الكلمات التي كانت تصرّ على الفرار. وكان ينظر إلينا بعينين مفتّحتين جدّاً، وكأنّه كان يحاول أن يحذّرنا، ويكشف لنا سرّاً وينقل إلينا معلومة ذات أهمية قصوى... لكنّنا ما كنّا نخدع أنفسنا. فهذا أمر يحدث لكل المُحتضَرين، أو إنّنا نحن الكائنات المُحبّة من يسعى ليُضفي على تلعثمات غير مفهومة أهميّة غير موجودة في الواقع. كان يشعر أنه يموت. وهو الشيء الوحيد الذي كان يحدث. وكان بحاجة إلى أن يُظهر لنا عطفه. «بيل، لوث، مار...» كان يكرّر أسماءنا باستمرار. وكان يبتسم ويُمسك بأيدينا. ولمّا غادرت هي الغرفة في إحدى المناسبات وكان هو ما يزال يستطيع الكلام سأل وعيناه مفتوحتان جدّاً وسيماء طفل على وجهه: «من هي؟ وماذا تريد؟ ولِمَ تدعوني بابي كلّ الوقت؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

دخلت الموظّفة ولائحتها في يدها.

- آسفة. استدعيناكنّ وحدّدنا لكُنّ خطأً موعداً قبل الأوان. لكن سيُسمح لكنّ بالدخول فوراً. معذرة. هذه التواريخ...

وانطلقت باسمة جدّاً كما جاءت.

«لا يهمّ» - تمتمت إحدانا لمّا غابت المرأة في الممرّ.

وهذا صحيح. ما كان يهمّنا ذلك. والآن ليس لدينا أدنى عجلة. بل على العكس، نحن نحتاج إلى تنظيم ذكرياتنا وإيضاح أفكارنا... لكن، أين أصبحنا؟ لا يكلّفنا جهداً كبيراً استردادُ الخيط. نحن كنّا في المستشفى على رأس السرير نعيش مرّة أخرى تلك الأيّام التي فقدنا فيها أباً واستعدناه في آن واحد. لقد كانت أيّاماً غريبة ملأى بالمشاعر المتناقضة، أيّاماً عزمنا

فيها على أن نمحو الماضي وندعم باربرو في ما تحتاج إليه. هو اختارها، ولم يُرغمه على ذلك أحد. وهي عُنيت به وأحبّته على طريقتها. ومع ذلك، يوجد لومٌ خفيّ. لِمَ أعلمتنا متأخّراً جدّاً حينما ما كان يوجد شيء لنعمله؟ ولم تسألها أيُّ واحدةٍ منا نحن الثلاث. ولم تكن لنا حيلة.

عادت باربرو إلى الريف ومعها رُفات والدنا في صندوق، وقالت لنا إنها ستنثره في الحديقة، وعلى المشتل المخصّص لزرع شجيرات الورد التي طالما تولّى رعايتها بنفسه باهتمام كبير. وتحدّثت عن الطعوم وتحضين الشجر، وعن الصراع الشديد في مواجهة آفات النبات والخنافس بسلاسة من غير خللٍ، ما كنّا نحسبها قادرة عليها. لكنها لم تدعُنا إلى الحفلة. أو ربّما رأت أنّ نثر رماد على أرضٍ ردمية لم يكن حفلة شعائرية حقيقيّة. لكنّها كانت تبكي، ولم تكفّ عن البكاء. دموع تتحوّل في الذكرى إلى كتل جليدية، وإن كان من الممكن أن نكون صدّقناها حينئذٍ مدفوعات بالانفعال. ونجهل ما إن كان الأمر التبس علينا حينئذٍ، أو إنّنا مخطئات الآن. فهززنا أكتافنا. فنحن بشر. وبذلنا جهدنا لنظلّ موضوعيّات ونستردّ مشاهد من الماضي من غير أن نقع في الإغراء بأن نفسّرها على ضوء تسلسل الأحداث الأخيرة. لكنّنا بذلنا جهداً. وحاولنا ذلك. وعدنا إذاً، إلى صورة باربرو والصندوق في يدها وعيناها غارقتان في الدموع، وبعد أسابيع من ذلك إلى باربرو هادئة وشعرها ملموم على شكل ضفيرة فوق القفا، وإلى اليوم الذي جئنا فيه إلى مكتب الكاتب بالعدل. وإلى الإجراءات المختلفة التي شغلتنا طوال الأشهر التالية كلّها تقريباً... وما كنّا نلتقي من قبل بهذا التواتر. فقد عملت ذكرى والدنا على حتِّ الصعوبات. وكانت تعاملنا بودّ كبير وبعطف تقريباً.

«أمْهِلْنني شهوراً عدّة» -طلبت منّا عند توديعنا- «وسوف أُخطركنّ متّى نظّمتُ أوراق أبيكنّ».

لقد عجبنا في هذه المناسبة على الأقلّ، أنْ كفّت عن مناداته «بابي»، وكذلك بدت جاهزة أيضاً لمراجعة الوثائق من غير أن نطلب منها ذلك، وتسليمنا ما هو عائد منها لنا. وتصوّرنا أن أبانا -وهذه سخرية خالصة- قد جلب بموته السلام الذي لم يستطع أن يعرفه في حياته. وإن نكن قد أخطأنا مرّة أخرى. فقد تلاشت باربرو بأنقى أسلوب في رواية أسرار. لقد تبخّرت واختفت من غير أن تترك أثراً، وغابت عن الأنظار. فلم تهتف لنا قطّ، وما كانت تُزعج نفسها؛ فلا تجيبنا على الهاتف، ولا تجيب على البريد. واليوم، لم يكن ما نشعر به استهجاناً، بل مللاً. فإلى متى يجب علينا أن نرقص حسب نزوتها؟

كنّا نُجري في ما بيننا قُرعة، ونصبنا فِخاخاً. وانتهينا إلى أن نكشف أنفسنا. فلم تكن أيّ واحدة منّا على استعداد للاقتراب من القرية والبحث عن البيت الذي لم نُدعَ إليه قطّ، ومن القرع على الباب ومواجهة عيني الجليد وحيدة. لذلك عزمنا مرّة أخرى على ظهور الثلاث معاً وفجأة. ومرّة أخرى بورتوس وآتوس وآراميس والملوك المجوس وساحرات إيستويك... ثلاثيّ لم نكفّ عن أن نضمّ إليه في الطريق البانتشوس، والنمور الحزينة، والمغنّين الثلاثة(*). لكنّنا، وفي الطريق أيضاً، أطلقنا لخيالنا العنان حول الأسباب الممكنة لصمتها. ولم يكن سببٌ واحد منها، ما خلا الموت، يسوّغ في رأينا موقفاً غير مفهوم. كنّا نجهل كم يبعد البيت

(*) جميعها أسماء فرق غناء ثلاثية، والأخيرة هي مجموعة غنائية للأوبرا خلال التسعينيات وأوائل العقد الأوّل من القرن (21). كانت تضمّ الإسبانيّين بلاسيدو دومينغو وخوسيه كاريراس والإيطالي لوتشيانو بافاروتي. (م).

عن القرية، ونجهل ما إن كانت باربرو على علاقة جيّدة بالجوار، أو ما إن كانت تعيش في عزلة وسط الحقل. كان العنوان البريدي يشير فقط إلى اسم طريق. وما كان هذا مشجّعاً بشكل دقيق. بصوتٍ عالٍ بعد ستة أشهر من مخابرتنا الهاتفيّة الأولى من غير ردّ، وخمسة أشهر مذ كتبنا لها أوّل مرّة... الأفضل ألّا نستبق الأحداث الآن.

***

وما كان علينا أن نبحث عن البيت. فظهر لنا فجأة إزاء القرية بالواجهة التي رأيناه فيها في الصور. تركنا العربة إلى جانب الطريق. وشرعنا نسير من غير اقتناع كبير. وكان هدفنا موجوداً على بعد خمسين متراً. لكن الآن، كلّما كنّا نقترب، كان شيءٌ ما شبيه جدّاً بالخوف يحثّنا على التراجع والبحث عن أعذار والعودة إلى العربة، ثم نبتعد كيلو مترات عدّة. ألم يكن من الحصافة لو لجأنا إلى الشرطة؟ أو التقرّب من القرية والسؤال؟ لكنّنا كنّا بلغنا الآن باب الحديقة الحديدي، وقلنا لأنفسنا لن يحدث لنا شيء. وسرعان ما سمعنا في تلك اللحظة تقريباً صوت مِدمّة(*) هادئاً يتبعه صوت ارتطام حجارة عند سقوطها. فهُرعنا إلى الباب الحديدي ونظرنا من بين القضبان. وفركْنا عيوننا غيرَ مصدّقات. ذلك كان مستحيلاً. لكن، أيمكن لنا نحن الثلاث أن نكون رأينا الشيء ذاته؟

كان هو هناك في قاع الحديقة يعمل بمدمّة ويكوّم حجارة في عربة يد. وكان يعتمر قبّعة اللبّاد القديمة التي أهديناها إليه منذ سنين عديدة، ويرتدي السترة الجلديّة التي حصل عليها أيّام أخذ فيها يُعنى بمظهره ويجدّد منظره. كان هناك منكبّاً فوق أرض صخرية، ومستسلماً روحاً وجسداً لعمله. وفي

(*) خشبة ذات أسنان تُسوّى بها الأرض. (م).

لحظةٍ ما أخرج منديلاً من جيبه ومرَّ به على وجهه. كانت لحظة قاتمة جرف فيها المنديل بمروره كلّ ما كنّا نعتقد حتّى ذلك الحين، جرف حياتنا وحياته. لكنها كانت لحظة خالدة على شكلٍ خاص، وكان كلّ شطط فيها يبدو لنا قابلاً للتصديق. أنكون دخلنا في متاهة الزمن؟ وما كنّا نظن أنّنا نراه الآن، أهو حاصل فعلاً؟ أم هو ذكرى فقط وعطالة روتين قديم؟ اللّهم إن لم يكن الأمر عبارة عن لعبة ونكتة أو فخّ، وعن خديعة باختصار. من تصوّر تلك الكوميديا من الأشباح؟ وبأيّ هدف؟ أمّا هو، وقد أحسّ أنّه مراقب، فحفظ المنديل في جيبه بسرعة والتفت جهة باب القضبان الحديديّة ونظر إلينا دهِشاً. وحينئذٍ فقط أدركنا أنه رجل غير معروف تماماً.

تقدّم نحونا بخطا ثابتة وظِلٌّ من الشكّ في نظرته. كان ذا هيكلٍ شبيه بهيكل والدنا، وكان يرتدي ثيابه. لكن، هنا انتهى كلّ شبه بينهما. كان رجلاً قرويّاً أسمر البشرة وآثار الشمس والريح بادية على محيّاه. رجل لم يكفّ عن تفحّصنا بحذر. وربّما كان ذلك يعود إلى اللوحة التي نشكّلها في الباب. ثلاث نساء شابّات يتشبّثن بقضبان حديد ويتحرّينه بصمت. وقبل أن ينطق كلمة واحدة سألناه عن باربرو.

– السيّدة الأجنبيّة؟ أصبحت لا تقطن هنا.

وقدّمنا أنفسنا فهزّ كتفيه. ولم يكن يعلم بوجود والدنا، ولا بموته أيضاً. أمّا السيّدة فقد رآها مرّة واحدة فقط. رآها يوم غادرت البيت وساعدها على تحميل كثير من الحقائب في العربة. وألححنا فهزّ كتفيه مرّة أخرى. ومعرفته بالمالكين الجدد هي أقلّ أيضاً، سوى أنهم أجانب، وكلّفوه عن طريق مكتب عقاري أن ينظّف قدر المستطاع كارثة الحديقة تلك. وهو المكتب ذاته الذي لجأت إليه السيّدة للبيع والملّاك الجدد للشراء. وهذا

ما كان يعمله: تنظيف الحديقة من الحجارة وجعلها مقبولة. وأصبح لا يقدّم لنا شيئاً آخر.

حتّى ما كنّا نحتاج إلى أن ينظر إلينا.

«من أين حصلت على السترة؟» - قالت له إحدانا مشيرة إليه بإصبعها.

كانت تلك مصادفة حاسمة، وأصابت الهدف. سؤال طنَّ كأنّه انفجار قنبلة. فنظر إلى البنات الثلاث واحدة واحدة. والآن لم يكن خوفٌ في عينيه، وإنّما خليط من الاضطراب والخجل فقط.

«أهدتها إليّ السيّدة» - قال أخيراً.

لكنّه ما كان يبدو مطمئنّاً جدّاً.

- حسن! طلبت منّي أن ألقي إلى القمامة كلّ ما أجده في المستودع.

وظللنا صامتات.

- أوراق، علب، ثياب مستعملة، أشياء لا نفع فيها.

وفتح لنا باب القضبان وأشار إلى بناء صغير من الخشب. أيكون بيت الضيافة المشهور؟

- إلى الآن لم أُلقِ شيئاً.

وبعد نصف ساعة، غادرنا الحديقة التي لن نعود إليها أبداً. حديقة ملأى بالحجارة والعشب الضارّ، وتشقّقت أرضها بفعل الجفاف. حديقة مزروعة بالأكاذيب حيث من غير المحتمل تماماً أن تكون شجرة ورد قد نمت ذات مرّة.

***

ومن جديد رحنا نضيع في التفاصيل، ولا محيدَ لنا عن ذلك. ربّما

كان خيراً لنا أن نبدأ من النهاية ونتخلّى عن اللّف ونتّجه مباشرة إلى المستودع. لكن، أتى علينا زمن لم نلتقِ فيه، وربّما، من هنا كانت حاجتنا إلى أن نتذكّر ونحدّد تسلسل الأحداث، ونعطي الظروف الدور المنوط بها يومئذٍ، والمصادفة دورَها، مثلاً. مصادفة كانت إلى جانبنا منذ البداية وتدفع بنا إلى الظهور في البيت في اللحظة المحدّدة. المصادفة ذاتها التي جعلت الجنائيّ يرتدي سترة والدنا ويعتمر قبّعته القديمة. المصادفة التي جعلتنا أخيراً نظهر تحديداً ذلك اليوم لمّا كان رجل كأبينا يعزِّل الحديقة، وأشياءَ المستودع التي «لا فائدة فيها»، والتي لم ينتهِ بها الأمر حتّى الآن إلى القمامة.

والطريف أنّنا نحن الثلاث تذكّرنا الرجل المجهول بشعور قريب جدّاً من التعاطف. وبدا لنا شخصاً مستعاراً وشكلاً جاء من تاريخ آخر، ورسولاً من القدر لكي يبدّد الشكوك، ويوفّر علينا إجراءات ويضع نهاية لكابوسٍ أفرط في ديمومته: «هذا هو الموجود... أنتنّ ذاتكنّ». لأنّ هذا هو بالضبط ما كان موجوداً. أوراق، وعلب وثياب مستعملة... أشياء قد تكون غير نافعة لأيّ شخص ما عدانا. إنّها ألبومات صور منسيّة، ومحافظ فيها مراسلات، ووثائق قد نكون بحاجة إليها ذات يوم. وكان بين الأوراق على غير توقّع، صكّ ملكيّة مدفن فيه قبرُ الوالدة والأجداد. المدفن العائلي. وآخر وقاحة أعادتنا إلى يوم جُرِّدت فيه بعض الصور من إطاراتها وكُوِّمت كيفما اتّفق على رفوف مكتب. لكنّ أيّاً منّا ما كانت تستطيع أن تسأل نفسها: لِمَ لم تخبرنا؟ وأيّ شيء كان يكلّفها ذلك؟ وأفترض أنّنا ما كنّا لنقدّم أيضاً أدلّة لتوثيق بيانات مستفيضة حول مشتل وورود مفترض أو عناية مدهشة كان والدنا حسب الرواية الوحيدة ذاتها، يبذلها باستمرار. «كذّابة ولعينة!» كان ذلك المعنى الكامل والوحيد الذي خصصناها به.

وهنا توقّفنا. ولم يخطر ببال أحد أن يسمّيها «مريضة». حتّى ولا «مجنونة». فالمرضى ينالهم العطف، والمجانين يُغفر لهم آخر الأمر. لكن، لا شيء أبعد عن نفوسنا من أن نعطف عليها، ولا شيء أكثر حماقة من التفكير ولو مدّة ثانية واحدة في أن نغفر لها. أمّا أن ننساها فنعم، وبأسرع وقت، كانت أينما كانت، سواء أكانت مسافرة من غير توقّف، أو عائدة إلى مكانها الأصلي، أو مستقرّة في بلد آخر تزرع فيه الشقاق. لقد حكمنا عليها أن تظلّ في الظلام وبأعظم صمت مطلق، وكأنّها ميّتة أو مدفونة. وحصلنا على ذلك، حصلنا عليه خلال ست سنوات ونصف السنة. سنوات كان فيها شيء قليل من كلّ شيء. غراميّات، وزيجات، وفرقة، وطلاق وزيجات أخرى. سنوات غيّرت فيها إحدانا المدينة وأخرى البلد. وأخيراً، سنوات لم نزعج أنفسنا فيها بأن نتذكّر مكائد وترّهات، أو نحاول أن نفكّ على البعد مفاتيح تصرّفات غامضة إلى أن تردّد اسمها مرّة أخرى هذا الصباح نفسه في أوائل أعياد الميلاد التي نوينا أن نقضيها معاً بعد زمن طويل. فقد جهدت باربرو أن تُبدي علامات عن حياة في وقت هو أقلّ الأوقات توقّعاً. أو لأكون أكثر دقّة: عن موت.

***

لا نعلم بشكل جيّد جدّاً كيف تعمل هذه الأشياء. فيما إن كان سيظهر عند فتح الباب نعش عليه جثمان مغطّى بملاءة، أو إنْ كنّا نحن من يدخل إلى داخل غرفة ملأى بأوعية معلّمة بأحرف أو أرقام. لقد رأينا ذلك في الأفلام. رأينا دروجاً عملاقة يبسطها الموظّفون أمام أقرباء أو معارف. وهؤلاء يوافقون أو ينفون. وأحياناً يصرخون أو يُغمى عليهم. ربّما كنّا نؤثر لو سُمح لنا بالاختيار، أن نجلب الجثمان حتّى هنا، وإن تكن كلمة «نؤثر» ليست الكلمة الملائمة تماماً. فنحن لا نؤثر شيئاً. لكن، من بين الخيارين

يبدو لنا الخيار الثاني هو الأسوأ. إنّه أرشيف للموتى مصنّفين بشكل كامل ومرقّمين. وهو برد. برد قارس حتّى في السينما يخترق الشاشة ويجمّد المشاهدين.

ولا نعرف بدقّة ماذا حدث. فربّما يبيّنونه لنا، أو لا يفعلون. والمعلومة الوحيدة التي في يدنا أنّه توجد جثّة قد تكون لباربرو؛ وأنّنا موجودون هنا لأمرين اثنين: إمّا لكي نشخّصها، أو لنعلن أنّنا لا نعرفها. وفكّرنا إن كانوا بحاجة إلينا فذلك أنهم ليسوا واثقين لا بهذا الاحتمال ولا بالاحتمال الآخر. والثابت أنّهم لم يكونوا صريحين جداً على الهاتف هذا الصباح. تحدّثوا عن حادث متعدّد وعن اضطراب في الوثائق وعن الحاجة الماسّة إلى أن نحضر بشخصنا في المساء إلى المكان حيث نوجد الآن. لم يقولوا لنا إنّه معرض جثث، وإنّما هو «معهد الطبّ الشرعي». ولقد أذهلتنا المفاجأة حتّى لم نكن قادرات على أن نسأل عن بعض التفاصيل التي تثير اهتمامنا الآن. أوّلاً، كيف حدّدوا مكاننا بهذه السرعة، وثانياً، ما الطريقة المعتمدة في تشخيص روتيني. أيسمحون لنا بالبقاء معاً كلّ الوقت؟ أم سنُرغم على أن نجتاز الإجراء الشكليّ بالتفريق بيننا؟ تفاصيل، على الأرجح ليس لها أدنى أهميّة. فنحن هنا وهذا هو المهمّ. وإذا كنّا هنا فذلك بسببها، بسبب باربرو. بسبب المرأة التي كنّا دفنّاها في الذاكرة بسذاجة. لكنّ الذاكرة، كما رأينا، ليست قبراً عالي الأمان. فعند مجرّد ذكر اسمها خرجت الصور المقصيّة من مخبئها أكثر حيوية من ذي قبلُ. وشعرنا مرّة أخرى بالغضب والاستهجان والعجز. مشاعر كنا نحسبها منسيّة، وقد وجدنا لها الآن تفسيراً كان يستعصي علينا قبل ذلك. فباربرو لم ترتكب بحقّنا أيّ جريمة يُعاقب عليها قانوناً. لكنّها هزّأت مَن كنّا نحب أكثر ما نحب، وغزت مجالنا، وسرقت خير ذكرياتنا وسخرت من كلّ ما كنّا

نحترمه، وكافأتنا بأعظم احتقار على الإطلاق. والآن ظهرت مرّة أخرى -جنيّة وإنسيّة- في لحظة أبعد ما تكون من التفكير فيها، وهي على غير استعداد لتعفينا من شيء واحد، وإن يكن الأخير، من جثّتها.

كلمة «جثّة» كان لها وقْعٌ غريب بين هذه الجدران الأربعة. فهنا لا يوجد غير رفات وفضلات وأجسام من غير حياة ولا تاريخ، بانتظار أن يسحب موظّفٌ الصناديقَ المرقّمة ويعرضها على الزائرين، فربّما تستعيد فرادتها الضائعة حينئذٍ إذا كان الحظّ مواتياً. وإلى الآن لم تحِنِ اللحظة الرهيبة. هديّة تأتي بعد موت المرأة التي كان والدنا يدعوها «حبّي»، وإرادتها الأخيرة في التلذّذ بإثارة الضجر بعد الموت. لكن، سرعان ما تقاطعت نظراتنا، واشتعلت شرارة في إنسان العيون، ولبثنا صامتاتٍ ولم نستطع إلّا أن نبتسم. وعرفنا اللحظة. هذه الشرارة هي صديقة قديمة ظهرت أوّل مرة منذ مدّة طويلة في الحانة البعيدة على الناصية التي كنّا نلجأ إليها كلّ الأيّام لنُغرق آلامنا ونجلو أفكارنا. والشرارة الآن، كما كانت حينئذٍ وكاليوم الذي أشهرنا فيه صكّ ملكيّة بيت أُخِذ منّا غزواً، كانت ترشدنا: «خطر! أبعدنَ هذا التفكير عن رؤوسكنّ، وانسَيْنه!»، لكنّنا كنّا أفرطنا في السرعة. واتّفقنا من غير كلام تقريباً. وما كنّا نحتاج إلى الكلمات لنعلم أنّ باربرو (سواء أكان الجسم الذي ينتظرنا جثمانها أم لا) لن تعيث هذه المرّة فساداً. ولا نحن مضطّرون لنمرَّ بمحنةٍ. وكم يبدو الآن كلّ شيء بسيطاً! ويا للطمأنينة! يقيناً كنّا نعرف ذلك مذ دخلنا القاعة التي كان علينا أن نقضي فيها قرابة ساعة جالسات. كنّا نعرف ذلك من غير أنّنا كنّا نعرف. وهذا يحدث كثيراً، لذلك أثرنا ما إن وصلنا مشاهد من الماضي، أو بالحَرَا، احتلّت فجأة أذهانَنا لحظاتٌ لكي ترشدنا إلى الطريق الذي يجب أن نسلكه. وهنا كان الطريق

واضحاً ونظيفاً. وما عدا ذلك ما كان يهمّنا في شيء. فماذا يحدث للجثث التي لا يشخّصها أحد؟ أتذهب إلى قبور مشتركة؟ أم إنّ هذه الممارسة حكاية خالصة؟ أو يُؤمَّن لها على غرار ما يجري في بلدان أخرى، دفنٌ بعمل من أعمال الإحسان؟ قبر من غير أسطورة؟ أو هو حفرة متواضعة مع شاهدة خرساء في أيّ مقبرة شامسة في الجنوب؟

إنّنا لا نعرف كيف تحدث هذه الأمور. وقد سبق أنْ قلنا ذلك؛ وهذا لا يهمّنا كثيراً أيضاً. والثابت أنّنا لا نفكّر الآن في أمّي وذكراها الحلوة وفي رغبات قديمة لدفع الضرر وإقامة العدالة، حتّى ولا نفكّر في أبينا. لا نفكّر إلا في أنفسنا وفيها هي. هذه أوّل مرّة أصبحنا فيها متشابهات نحن وهي، شبهاً غير قليل. من كان يَزعم ذلك! هي التي لا يمكن أن تُتّهم قانوناً بأيّ جرم. ونحن لا يمكن لأحدٍ أن يزعم أنّنا كذبنا. لأنّنا لن نكذب. ولن تكون ضرورة لتزوير أيّ مُعطى. وسوف نسأل أنفسنا ما إن كنّا نعرف جثمان الراقدة على هذا النعش، وسوف نقول: «كلّا!» كبيرة! وهذي هي الحقيقة خالصة. وقلّما يهمّ مَنْ منّا نحن الثلاث اكتشفت ذات يوم من أيام الصيف المهارةَ التي حوّلناها سريعاً جدّاً إلى فنّ. وسوف نكون مرّة أخرى من غير أن نكون. وأن ننظر من غير أن نرى. وأخيراً، لمّا فُتح الآن الباب الذي كُتب عليه «يُمنع الدخول» وقفنا على أقدامنا، ولم نقل شيئاً. لكنّنا كنّا ننظر بعيون عميّة وذهننا لا يكفّ عن الترديد: «قطّ مقتول، قطّ مقتول، قطّ مقتول».

الحياة الجديدة

عزمَتْ على أن تبدأ حياةً جديدة. وكان لا بدّ لها من أن تبدأ حياة جديدة. فالشقّة الصغيرة التي اختارتها في فندق عشوائياً وتفاوضت عليها من برشلونة عبر إحدى الوكالات، بدت لها ما إن وصلت، المكانَ المثالي لكي تكفّ عن السؤال «كيف؟»، و«انطلاقاً من أي شيء؟»، و«ما هي الصيغة لبدء حياة جديدة؟». وكانت الشقّة واسعة وبهيجة. فيها مطبخ أميركيّ وسرير عريض وحمّام مجهّز تجهيزاً كاملاً، وصوفا وكنبات ومِزينة تستند إلى الجدار، ونافذة كبيرة تطلّ على جادّة «غران بيا». في الأساس ما كانت توجد حجرةٌ واحدة شاغرة في ذلك التاريخ في فندقها المعتاد، فندق حياتها كلّها في شارع باسيو ديل برادو. والأمر ذاته حدث مع الفنادق الأخرى المساوية التي كانت تلجأ إليها في بعض المرّات لمّا كان أرباب فندقها، فندق حياتها كلّها، يجيبونها على الهاتف: «آسفون جداً، كلّ الغرف محجوزة!». وإنّ شيئاً ما لا ريب أنّه حاصل في مدريد في أيام الربيع الأولى هذه، ولا يعرف أحد سببه. أهو مؤتمر أم معرض أم ندوة ذات بعْد خاص؟ وهي الآن تلتصق ببلّور النافذة وتحتمي من الشمس وراء نظّارة قاتمة، وتتأمّل بدهشة حركة الشارع وكأنّها تشهد عرضاً في فيلم صامت بميزانية

كبيرة، فيه آلاف وآلاف من الممثّلين الفائضين عن الحاجة، وألوان كثيرة متنافرة، وعمل. إنه مخطّط عام فيه بعض الكومبارسات تجهد لتجلب انتباهاً أكثر وبطولة أعظم. ورأت أحد المارة ذا مظهر حسن يقطع الشارع أربع مرّات أو خمساً. إلى أين هو ذاهب ذلك الرجل الطيّب، هذا إن كان ذاهباً إلى أيّ جهة؟ ابتعدت عن النافذة وفتحت الحقيبة. ستقضي ليلتين، ليلتين فقط. لكنها ربّما كانت شغلت الشقّة في مناسبة أخرى وقتاً أطول.. مدّة أسبوع أو شهر. أشعلت التلفاز، والسلسلة الموسيقية(*) وجهاز تكييف الهواء. وبدا لها في لحظة أنّ ذلك الفندق كان فندق حياتها كلّها. وشعرت بما قد كانت فقدته منذ مدّة ما، شعرت: بالرغبة في الكتابة والقراءة، وأن تحوّل المِزينة المُسندة إلى الحائط إلى طاولة للعمل، وفي الطبخ، وأن تملأ الثلّاجة، وتذهب إلى المسرح وإلى السينما. لكن أن تعود بوجه خاص، وأن تجد نفسها كلّ ليلة في تلك الغرفة البهيجة التي ما كانت لتغيّر فيها تفصيلاً واحداً لو تُرك لها الخيار. إنها غرفتها. لقد كانت خُصّت بغرفة هي لها.

نظرت إلى المفتاح 404. لقد أعجبها الرقم منذ اللحظة الأولى. أربعة زائد أربعة تساوي ثمانية. وتذكّرت أنّ اللانهاية هي ثمانية ساقطة(**). وقالت الصفر معزولاً يخلو مبدئيّاً من القيمة، وهو لا شيء. أو ربما له قيمة. وربّما المقصود حرف وليس عدداً. حرف O في كلمة Oxígeno مثلاً. تنفّست بقوّة. وأطفأت التلفاز، والسلسلة الموسيقية وجهاز التكييف. ورجعت إلى الثمانية، إلى الثمانية التي ما تزال تُمسك بها في يدها. أربعة وأربعة

(*) مجموعة ستيريوفونية مكوّنة من أجهزة عدّة لنسخ الصوت. (المترجم، عن معجم مجمع اللغة الإسبانية).

(**) تشير إلى رمز اللانهاية ∞ في الرياضيّات. (م).

تساوي ثمانية. منذ ثمانية أشهر أصبح هو غير موجود هنا. ثمانية أشهر لم تجرِ وَفْقاً لحسابات الزمن الطبيعية. فكانت تبدو لها أحياناً أبدية كالثمانية الساقطة وأحياناً تبدو فقط حلقات من الدخان ينضمّ بعضها إلى بعض على شكل ساخر في الهواء بين نفثة ونفثة من لفافة التبغ. هكذا كانت شهورها الثمانية لا نهاية لها وفارغة.

خرجت إلى الشارع. وهي الآن تشارك أيضاً في الفيلم. ممثّلة أخرى فائضة عن الحاجة، ممثّلة وسط آلاف. وربّما كان أحدٌ ما في تلك اللحظة يراقبها وهي وسط الناس، من نافذة ذات بلّور مزدوج، من حجرة صامتة في فندق ما. وأعجبها التفكير في أن يشعر فجأة هذا المشاهد، رجلاً كان أو امرأة، أنه مستريح وسعيد على شكل غريب. كما هو حالها الآن. سلكت طريق الجادّة الكبرى تحتُ، وهنّأت نفسها مرّة أخرى على حظّها، على الحجرة. كان النهار رائعاً. وراودتها رغبات في العمل والعودة إلى الحياة. تجاوزت وحدة بناء واحدة تقريباً وتوقّفت في ساحة. وفوجئت أنّ ما كان يبدو ساحة كان يحمل اسم شارع: شارع فلور باخا. لكنّ ذلك الصباح لم يكن كالأصباح الأخرى. وهي كانت قرّرت ألّا يكون كالأصباح الأخرى. وجلست في سطيحة. وفتحت مذكّرتها وكتبت: فلور باخا.

طلبت بيرة. يقيناً لن تعود أبداً إلى الفندق القديم في باسيو ديل برادو. «فلور باخا». كان يمكن أن يكون صوّة(*) جيّدة جداً في طريق جديدة. هوايات جديدة. وعادات جديدة. ربما كان هو هذه الحياة الجديدة التي بدأت تحديداً في تلك اللحظة. وراجعت مذكّرتها. فهي كانت مدعوة للعشاء مع إحدى الصديقات. وفي النهار كان عليها حلّ بعض الإشكالات

(*) الصُّوَّة: ما نُصِبَ من الحجارة ليُستدلّ به على الطريق. (المترجم، عن المعجم الوسيط).

في أحد المكاتب. لكنّ فكرة العشاء وحدها بدت لها فجأة عذاباً. أمّا الوثائق والإجراءات فهي حجّة بسيطة لقضاء زوجين من الأيّام في مدريد وتغيير الأجواء. وكتبت: «إلغاء العشاء وإرسال الوثائق بالبريد». نظرت إلى تعليقاتها في الأيام السابقات -من حكم وإيحاءات ودعوات إلى التفاؤل، وقواعد للسلوك- ابتسمت لمّا تحقّقت أنّها هي نفسها شطبتها في ثورة غضب لانعدام النفع فيها... ونجا من الحريق منها اثنان بصعوبة. أحدهما هدف قويّ: «العيش يوماً فيوماً». ثم كلمات إينشتاين يعزّي بها أرملةَ أحد أصدقائه: «لقد سبقني زوجك. لكن، بصفتي فيزيائيّاً، فسوف تعلمين أنْ لا وجود لماضٍ أو حاضر بالنسبة إليّ». وما كانت تتذكّر اسم الصديق ولا اسم امرأته. لكنها تتذكّر عدد المرات التي أعادت فيها قراءتها غير مصدّقة، وكأنّ تلك الكلمات كانت هي المقصود بها وحدها. ماضٍ، حاضر... بالطبع كان الماضي موجوداً. والمشكلة الوحيدة تكمن تحديداً في أيّ شيء كان ماضياً، وإن كانت تتعنّت أحياناً فتتقنّع بقناع الحاضر. وكانت أصوات وضحكات وجمل كاملة في سينما، أو في وسط الشارع تبثّ فيها الأمل في الغالب مرة أخرى. أو تنقلب قلقة عند استيقاظها من نوم. لكنّها الآن... نادت النادل ودفعت على عجل ثمن البيرة من غير أن تنتظر ردّ البقية.

أي شيء يحدث الآن؟ لقد رأته للتوّ. رأته. رأت الرجل الذي رحل عن هذه الدنيا منذ ثمانية أشهر تقريباً. الرجل الذي كانت قاسمته حياة كاملة ... كان يرتدي سترة بلون بنّي، سترة القطيفة ذات اللون البنّيّ المحروق! ويعبر ساحة-شارع فلور باخا بهيئة شاردة. فلحقت به بحذر. وما كانت تخدع نفسها. فمهما يبدُ الشبه مدهشاً فإنها كانت تعلم أن الأمر لا يمكن

أن يكون غير وهم. لكنها عزمت على ألّا يكون ذلك الصباح كالأصباح الأخرى. ولقد حدست بذلك منذ اللحظة الأولى، ما إن دخلت الغرفة 404، وشعرت أنها ملكها. إنّه صباح فريد، يسلك هو الآن فيه «غران بيّا» تحتُ، وهي تسير على آثاره من مسافة حذرة. وتوقّف هو بعد ثوانٍ معدودات أمام كشك. رأته يسلّم نقوداً ويحصل على علبة من التبغ، ثمّ استأنف سيره فوراً. كلّا! قالت في نفسها. هذا محال. إذ أصبح لا يدخّن منذ سنين عديدة. ولئن «لا يوجد ماضٍ ولا حاضر»، فقد تذكّرت واعتقدت حينئذٍ أنّها عرفت السبب الذي سجّلت فيه ذات يوم الجملة التي طالما أدهشتها، والتي ستعود إليها باستمرار. ربّما لن تفعل شيئاً آخر في الحياة الجديدة إلّا أن تلاحق أيّ رجل مجهول يظهر لها. ولم يكن لديها وقت لتُشفق على نفسها وترتدّ على عقبيها، ولا لتعرف أنّها كانت تتصرّف كالحمقاء. وهو كائناً من كان، التفت فجأة وكأنه أحسّ بنظرة في قفاه. أمّا هي فلم تكن لها وسيلة إلّا أن تختبئ في بوّابة بناء. وكانت سريعة فلم يستطع أن يكشفها. لكنّ وجه البوّاب المدهوش جعلها تلاحظ أنّ موقفها كان مضحكاً للغاية. أم إنه لم يكن كذلك؟ وقالت في نفسها إنه لم يكن. أَوَيمكن أن تخلو من اللياقة ملاحقة الشخص المحبوب؟ الرجل الذي تحدّى قوانين الطبيعة فظهر في مدريد مرّة أخرى في وضح النهار ذات صباح شامس، مناقضاً بشكلٍ سعيد تاريخَه ذاته؟

عادت إلى الشارع، وساورها الإحساس مرّة ثانية إبّان دقائق معدودات، أنّها تشارك في فيلم. إلّا أنها لم تكن ممثّلة فائضة عن الحاجة، امرأة متعاقدة لتكون فرداً غير مميّز. كانت تسير بخفّة مدهشة. وكان لها هدف. وهدفها ألّا تغيب السترة عن نظرها، وأن تتبعها من مسافة ما. وبدا لها

خلال لحظات أنّ الناس الذين كانوا يسيرون في كل الاتجاهات، كانوا يعرفون مقاصدها وهدفها. لذلك كانوا ينظرون إليها ويلتفتون عند مرورها ويشجّعونها بكلمات داعمة. لكن، أكان القصد كلمات داعمة؟ فلم تعد شابة وقد اجتازت منذ مدة من الزمن أبواب الابتعاد عن النظر المُتعب منه والمحتمل. زمن كانت تستطيع فيه الحركة من غير أن يوليها أحدٌ انتباهاً. مع ذلك، اكتشفت الآن، لمّا كانت أكثر ما تكون بحاجة إلى عدم تحديد هويتها، وإلى الإغفال، أنّها هدف لتعليقات وملاحظات وكلمات غزل منسيّة وعروض وقحة. أيّ شيء كان يحدث ذلك الصباح في الجادّة الكبرى؟ ولم تستطع أن تجيب نفسها. ثمّ أخذ هو فجأة يسير بخطا كبيرة. وكان عليها أن تشرع في الركض لتبلغه. وأصبحت لا يهمّها نظر الناس إليها ولا تتأثر أيضاً لمّا حاول أحد المغفّلين أن يهزأ فيسدّ طريقها. فما كانت تستطيع أن تفقده. إنها خطواته الطويلة. تلك كانت طريقته في المشي: السير بخطا كبيرة. وتوقّف الآن فجأة، وهذا ما كان يفعله في الغالب الأعمّ. كان يقف فجأة إذا تذكّر أمراً طارئاً. وأخذت هي نَفَساً ووقفت أمام محلّ لبيع العطور. هي مسألة ثوانٍ، فكّرت، إلى أن يستأنف هو سيره وأستطيع أن أتبعه من غير أن يراني. لكنّ زجاج مرآة عكس صورتها. وهنا لبثت مشدوهة، ساكنة، مفتونة.

لأنها كانت هي هي. من يعرف كم من السنين انقضت! لكنها كانت هي هي. كانت تلبس تنّورة قصيرة جداً وشعرها مرسل طويل. ولها جمّة ذات شعر كستنائي لامع. وكانت تجد نفسها جميلة وجميلة جداً. لكن، أكانت ذات مرّة جميلة جداً؟ وأعجبها التفكير أن تكون داخل حلم. حلم غريب، والرجل المحبوب كان يحلم بها حيثما كان، والآن هي كانت

تستعير منه النظرة. ربما هكذا كان يراها أوقات تعارفا فيها. تلك أوقات أمست بعيدة، بعيدة جداً، كان كلّ شيء فيها يبدو ممكناً. استنشقت دفقة من الهواء وساورها إحساسٌ أنها قد كانت عاشت هذه اللحظة من قبل. واجهة المحلّ والمرايا وصورتها المصغّرة والجادّة الكبرى ذات صباح شامس... وسراب. أو هو ببساطة أثر ضوئي، ضوء الشمس وانعكاسه ولعبة المرايا وأشياء الواجهة وإعلاناتها مختلطة بصورتها ذاتها.

«أين شردتِ؟» - سمعت فجأة.

بحثت عن نقطة استناد لكيلا تقع. هو كان هناك طويلاً دقيقاً... شابّاً كعهدها به لمّا تعرّف كلٌّ منهما إلى الآخر. والآن لا يساورها أدنى شك. فالفتى ذو السترة بلون بنّي محروق كان هنا يقف وراءها وقد أمسك للتوّ بها من كتفها.

- هيّا بنا، سنصل متأخرين. ألا تتذكّرين أننا جئنا مع تِتِه Tete؟

وأمسك بها من خصرها وسمحت بأن يقودها كأنّها تمثال متحرّك. تِتِه بوش. قد مات تِتِه بوش منذ سنين كثيرة. وكان تته أول من اختفى من الأصدقاء. وغادر هذه الدنيا. لكن، يبدو الآن أنّ أيّ شيء من هذا ربّما لم يحدث حتى هذه اللحظة. وتته حيّ. وهو لم يرحل بعدُ إلى المكان الذي لا يعود منه المرء أبداً. وكانت هي صبيّة ذات جمّة طويلة وتلبس تنّورات قصيرة بشكل مدهش. ثمّ عضّت على شفتها حتّى أدمتها. ولم يكن ذلك حلماً. فقد كان ذلك حاصلاً في الواقع. وشيئاً فشيئاً أخذت تتعرّف إلى الشوارع والمحالّ التجارية والحانات الرديئة. فدخلوا إحداها فبدت لها مألوفة بشكل غير متوقّع. كانت تعرف المكان، فقد كانت هنا مرّات كثيرة في أوقات أخرى، وإن كانت لا تستطيع الآن أن تتذكّر عددها. وعكست

مرآة مبقّعة صورتها من جديد. إنها ما تزال جميلة. وهو إلى جانبها في أوّل شبابه ويلبس سترة القطيفة الجميلة التي لم يشأ أن يستغني عنها قطّ. وكانت هي ما تزال تحتفظ بها في الخزانة من غير أن تعرف السبب.

- تِتِه استعار عربة، نستطيع أن نقضي يوماً في سيغوبيا.

- رائع!

ونظر إليها مشغول البال.

- ماذا حدث لك؟ لم تتكلّمي منذ الصباح.

فهزّت رأسها نافية.

- كنتَ تسير بسرعة كبيرة.

تِتِه لم يصل بعدُ. وهكذا أفضل. إذْ كانت تحتاج إلى وقت لكي تتمثّل ما يحصل. وأخرج هو كتاباً من كتب الجيب.

- عثرت عليه بالأمس في مكتبة للكتب القديمة. إنه جوهرة.

نظرت إلى صفحة الغلاف... إنه أورستيادا لأسخيلوس. ودُهشت بغباء من أنها قرأت العنوان من غير حاجة إلى النظّارة. ففي ذلك العصر لم يكن بصرها مُتعباً. أو ربما كان كذلك، لكنّها تعرّفت إلى الكتاب فوراً. فهو ما يزال أيضاً في البيت على رفوف مكتب لم تجرؤ على أن تسحب منه شيئاً، وإن لم يعد هو هناك.

«مطبوع بثلاث لغات» -تابع بفخر- «بالإغريقية الكلاسيكيّة والإغريقية الحديثة والإنكليزية».

- أجل!

وأمسك بها من يدها.

- أنتِ حدث لك شيء. أم أنّك مشغولة البال بالامتحان؟

الامتحان؟ إلى أي امتحان يشير.

- يقيناً أنت مقبولة. فلا تنشغلي!

وأخذت تتذكّر فجأة. تِتِه وعربة مهلهلة، والثلاثة في سيغوبيا وامتحان الصحافة... من أجل ذلك ذهبوا إلى مدريد. هي كان عليها أن تؤدّي امتحاناً في الصحافة، وهو جاء ليرافقها. كانا يذهبان إلى كلّ الأماكن معاً دائماً، ذلك منذ يوم تعرّف كلٌّ منهما إلى الآخر تقريباً في كلية الحقوق في برشلونة. ولم يكونا قطّ مخطوبين. وما كانت تعجبهما كلمة مخطوبين. بل كانا يبغضانها. كانا صديقين. هذا ما كانا يقولانه. صديقان بحرف كبير. صداقة لم تكن تُدهش أحداً بأن تنتهي بعد سنين بالزواج. وإن كانت لا تعجبهما أيضاً كلمة زواج، ولا كلمة زوج وزوجة. كان لها وقعٌ مهيب مبتذل عليهما. لكن، إن سألهما أحدٌ في ذلك العصر عصر تِتِه والهرب إلى مدريد وعصر امتحانات الصحافة لكانا أجاباه: نحن ص د ي ق ا ن.

«سأذهب إلى الحمّام للحظة» - قالت وداعبت وجنته.

الوجنة، يا إلهي! يا لحرارة وجنته!

وخشيت أن تنفجر في البكاء وتنفعل وتقول شيئاً ناشزاً، وتعيق اللقاء العجيب. ونهضت وأضافت: «سأعود فوراً». لم تكن بحاجة إلى أن تسأل ولا إلى أن تنتبه إلى سهم الدلالة (حمّامات - تلفونات)، لأنها كانت تعرّفت إلى المكان منذ فترة، وكأنّ ذلك كان اليوم السابق. نزلت زوجاً من الدرجات، والتفتت جهة الطاولة. كان تِتِه وصل للتوّ. وفي تلك اللحظة كانا يتعانقان. هو وتِتِه كانا يتعانقان. والآن، نعم، بكت وسكبت دموع سعادة قد كانت نسيتها. ودخل مسحوق الكحل عيناً من عينيها.

وكان عليها أن تتابع نزولها وهي تتلمّس طريقها تقريباً. ولمّا وصلت إلى الحمّام بلّلت وجهها. كانت بحاجة إلى أن تبدو طبيعية وتصلح هيئتها. وتُظهر خلوّ البال والفرح والتفكير في أنها ما تزال أمامهم حياة كاملة. فإذا فاجأهما مظهرُها أو خمّنا أنها قد بكت فسوف تقول ببساطة: «إنّه الكحل اللعين.. لا أدري لِمَ أطلي جفنيّ به!». هكذا كان الحال، وكانت تتذكّره بوضوح كلمة كلمة: «إنّه الكحل اللعين.. لا أدري لمَ أطلي جفني به...»، مثله أيضاً كمثل ذلك الصباح الذي أتيح لها أن تعيشه مرّة أخرى بشكل معجزة لمّا وخزتها عيناها طوال مدّة ما، فذهبوا إلى صيدلية وابتاعوا قطرة (ميرازول؟ أم فيزادرون؟) وركبوا العربة المستعارة وغنّوا طوال الرحلة. كان الذهاب إلى سيغوبيا يُعدّ في ذلك الوقت رحلة. غنّوا أغاني حربيّة، وأناشيد وقصائد محظورة... جدّ محظورة كما كان محظوراً عليها في سنّ العشرين أن تكون في سيّارة مع تته ومعه هو، أحراراً كالعصافير وخليَّي البال وفرحين، بينما آباؤهم في برشلونة يحسبونهم يؤدّون امتحاناً أو يدرسون. مبارك عصر من غير هواتف خليوية أو محمولة. نشّفت وجهها بمنشفة (حتّى ذلك الوقت لم تكن بكرات الورق قد غزت الحمّامات)، وصعدت الدرجات درجتين درجتين. كانت جاهزة وكانت تعرف سهم الدلالة وكانت سعيدة، بل أسعد صبيّة في الدنيا، وإن كانت ما تزال تبكي دموعاً سوداً. ولمّا فركت عينيها لم ترَ مدّة لحظات، شيئاً آخر غير سحابة رماديّة ضخمة. اللعنة على الكحل!

***

وفكّرت مدّة لحظة واحدة أنّها قد أخطأت. وأنّ الحانة الرديئة كان فيها قاعة أخرى، أو أن الحمّامات كانت مشتركة بين مكانين مختلفين. لكن، ما كان هنالك غير سلّم واحد وحانة فيها حاجز ضخم وبعض الزُّبُن ودستة

من الطاولات محشورة كيفما اتفق في إحدى الزوايا. فسألت نادلاً بصوت ضعيف: «الشبّان... الشبّان الّذين كانوا هنا منذ لحظة؟». فهزّ الرجل كتفيه من غير أن يجيب. واستندت إلى الحائط. أين اندسّوا؟ وكيف أمكن لهم أن ينسوها؟ فقدّمت لها صبيّة شابّة جدّاً مقعدها: «هل أنت على ما يُرام، سيّدتي؟»، فنفت بحركة من رأسها. «يبدو أنّها تائهة» -قال النادل- «دخلت منذ لحظة... وتوجّهت إلى الحمّامات مباشرة». وكلّمتها الشابّة مرة أخرى بلطف وبصوت مرتفع وبطيء جدّاً وكأنّها أجنبيّة يصعب عليها أن تفهم: «أتعرفين أين تسكنين؟ أتريدين أن نطلب لك سيارة أجرة؟»، فلم تُجب... إنّما فتحت حقيبة اليد وأخرجت مرآة صغيرة وتأمّلت نفسها طوال لحظات معدودات من غير دهشة. وسمعت من بعيدٍ أصواتاً كالزميم تهتمّ بما كان يحدث. وسمعت الشابّةَ مرة أخرى وهي تطلب منشفة مع مكعبات من الجليد، وتطمئن الفضوليين: «لا شيء.. هي سيّدة ليست على ما يرام».

رجعت إلى الغرفة-الشقّة التي طالما أُعجبت بها ذلك الصباح. وتذكّرت: «ماضٍ، حاضر». «لا وجود لماضٍ ولا وجود لحاضرٍ». وكان الحاضر قد أطلّ هذا الصباح على ماضيها أو على العكس، هي بقايا من الماضي ظهرت في حاضرها... فتحت الحقيبة. هم قد يكونون في هذه اللحظات في الطريق إلى سيغوبيا. ثم السؤال من جديد: «كيف أمكن لهم أن ينسوها». لكنّ القطارات عالية السرعة تسمح لها بأن تدركهم. وأن تبلغ الهدف قبل أن يصلوا إليه. إنها أزمنة الحاضر في مواجهة أزمنة الماضي. ولم يضِع أيّ شيء حتى الآن. لأنّها تتذكّر كل ذلك مرّة أخرى تمام التذكّر. مطعم، وخمر حسب الطلب، والبحث عن بنسيون اقتصادي لقضاء الليل. ولا أهمية للأسماء ولا للموقع الصحيح. ولربّما تطوف بالمطاعم مطعماً مطعماً وبالفنادق فندقاً فندقاً والنُّزل والحانات إلى أن تعثر عليهم.

والأفضل لها أن تترك الحقيبة في الاستقبال وتسافر من غير متاع، وألّا تضيع ثانية واحدة أخرى، وأن تأخذ سيارة أجرة وتتوجّه إلى «تشامرتين».. ولسوف تدركهم! وتنخرط من جديد في ذلك السفر الذي كان منذ مدة طويلة.. تِتِه وهو وهي.. مع حياة كاملة أمامهم.

انزلق المفتاح من بين يديها وتدحرج الرقم مدّة ثوان على الأرض. وابتسمت: «ثمانية أشهر، أوكسجين Oxígeno، أربعة زائد أربعة، اللانهاية...»، وانثنت، والتقطت المفتاح، ولم تلبث أن تسمّعت إلى نفسها وإلى أفكارها منذ لحظة، وإلى الإحباط وإلى الغمّ، تلك التي كانت ترافق السؤال: «كيف أمكن لهم أن ينسوها؟»، لكنّها شكرت المعجزة أيضاً أنّها قد سافرت في الزمن بينما كانت تستند إلى السرير لتنهض واقفة: الأمل بأن هذا الذي حدث أيّاً يكن، يمكن أن يتكرّر، والتزامها بكلمات آينشتاين التي تحوّلت إلى كلمات مقدّسة: «لا وجود لماضٍ، ولا وجود لحاضر». واليقين المفاجئ بأنها أخطأت في شيء ما، شيء هامّ جدّاً. لأنّهم لم ينسوها. فكيف خطرت لها حماقة كهذه الحماقة؟ بالطبع هم لم ينسوها. ها هم الثلاثة معاً في الطريق على متن عربة مهلهلة مُعارة، يغنّون ويضحكون. إنهم أحرار وهذه الرحلة التي تعود إلى سنين كثيرة والتي عاشتها مرة أخرى مدّة لحظات لم تنتهِ بعد. وضغطت على المفتاح كأنّه تميمة. 404. Oxígeno. أربعة زائد أربعة تساوي ثمانية. واللانهاية هي ثمانية ساقطة على جنبها... فتحت يدها من غير أن تتنبّه، فانزلق المفتاح من جديد وأخذ يقفز على الأرض. لكنّه بدا لها هذه المرّة أنه يسخر: الحياة الجديدة، الحياة الجديدة، الحياة الجديدة.

جلست إلى جانب المِزينة وتراءت في المرآة. لن تذهب إلى أي

مكان. فالماضي ما زال سهم دلالة حديديّاً. وما كان يتقبّل أموراً مرتجلة. وأيّاً يكنْ كلام آينشتاين فإنّ الماضي والحاضر فضاءان لا يمكن أن يتصالحا. وكانت توشك أن ترتكب جنوناً. وكان الصباح كله حماقة. وما تزال تستطيع أن تراهم وتسمعهم إذا أطبقت عينيها - الأغاني والعربة والطريق... لكن، إذا فتحتهما، فكانت تجد نفسها مرّة أخرى ووجهَها المُتعب. هذا ما كانت تعرضه عليها الحياة الجديدة: ولن ينفعها إلا شيئاً يسيراً أن تخدع الساعة وتحاول الاستحواذ على أزمنة أصبحت لا تنتمي إليها. ووجدت نفسها أنها مدّة لحظة متعرّقة منهكة. وقد عثرت في النهاية على النُّزل حيث الأصدقاء الثلاثة يدردشون بحرارة. واحتلّت بأعظم حذر طاولة قريبة تستطيع منها أن تراقبهم وتنتظر إلى أن تعمل المعجزة عملها مرة ثانية. لكنّها الآن، نعم، شعرت بأنها مضحكة ودخيلة وسارقة ومشاغبة تمام الشغب. لأنهم هم الثلاثة كانوا في العشرين من أعمارهم ويتمتّعون بشبابهم ويعيشون اللحظة... وما بدا الآن أكثر وضوحاً: أنّهم لا يحتاجون إليها في شيء. إليها. إنّها امرأة في الستين تقف ساكنة أمام مرآة وتجد نفسها من حين إلى آخر مدّة لحظات أنّها ليست على خير ما يرام.

أيّام مع الوازي - وانو

بدا لي خالاي تريستان وبالِريا دائماً مرحَين لاهيَين، وفوق كلّ شيء شابّين وشابّين جدّاً، وإن يكونا قد بلغا الخمسينات من العمر، أو ربّما يوشكان أن يبلغاها. وما كان لهما صلة بأبوينا ولا بأصدقاء أبوينا. في الواقع، هما لا يمتّان بصلة لأحد. لذلك أدهشني دهشة عظيمة أنْ أُرسلنا ذلك الصيفَ أنا وأخي لنقضي شهر آب معهما في الجبل حيث نستطيع -وقد كُرّر ذلك علينا أكثر من مرّة- أن نستنشق هواء نقيّاً ونأكل بيضاً طازجاً ونشرب حليب ماعز حُلِب حديثاً. لكنّ الدهشة ما كانت تأتي من الهواء ولا الحليب ولا البيض، وإنّما منهما هما، وتحديداً منهما الأحمقين، الشاذّين، اللامسؤولين. أصحاب عاشت اللامبالاة(*)! ومن بين كلّ الصفات التي كانت تطلقها عليهما العائلة بانتظام هي وجودهما المرح. وعاشت اللامبالاة! كان أكثر شيء يريبني ويعجبني في آن واحد. وكنت أتصوّرهما في حميمية بيتهما، في غرفة الطعام، أو في المطبخ، أو

(*) في النّص: «عاشت العذراء!»، ويُقصد بالعبارة الإنسان الذي لا يبالي بما يفعل أو بما يقول أو يُقال عنه. وجعلناها بصيغة الهتاف، لأنها تتكرّر في النص سلباً أو إيجاباً. (م).

في المخدع وهما يمسكان بصرر من الثياب والملاءات وأغطية الموائد ويقذفان بها في الهواء، ويجعلانها تسقط على الأرض على إيقاع صيحة: عاشت اللامبالاة! أمّا القدور والمقالي فكانت متعتهما بها أعظم. عاشت اللامبالاة، ودعْنا من الكلام عن غرفة الطعام، وهما يرقصان على صوت حاكٍ ذي بوق، بانتظار أن يُطلق القرصُ الدوّار آخر الألحان ليقذفا به إلى السقف، ويحتفيا بسقوطه ويدعساه بابتهاجٍ وسط الهتافات الإلزامية اختصاصِ البيت. وكان ذلك الهتاف: «عاشت اللامبالاة» يبدو لي أيضاً أنّ فيه شيئاً من: «عِشْ كما تريد!»، فيلم فرانك كابرا الذي كانت أمّي تتحدّث عنه دائماً، والذي كنت أعرفه عن ظهر قلب، وإن لم تُتح لي الفرصة لأراه ذلك الوقت. وأظنّ أنه كان طريفاً. وأمّي محبّةُ النظام والواجب، كانت مفتونة بذلك البيت في فيلم بالأبيض والأسود من غير التزامات ولا تعليمات. بيت عاشت اللامبالاة، كبيت الخال تريستان أخيها والخالة بالِريا زوجة أخيها. لأنّي لم أخطئ في ذلك. ففي بيت الخالين يعيش المرء بحريّة. وإلى جانبه يبدو كلّ بيت آخر سجناً وحديقة حيوان. لذلك سُررنا بالقرار منذ اللحظة الأولى. كنّا دهِشين، لكن، مسرورين، مع العلم أنّنا ما كنّا نعرف حتى ذلك الحين شيئاً عن الوازي - وانو.

لم يكن للخالين أبناء، لأنّهما لم يكونا يرغبان فيهم. وعن هذا الأمر كان الحديث يجري في العائلة في الغالب. كان البعض يقول إنّ ذلك بسبب الأنانيّة. وآخرون (وأمّي منهم) يرون أن ذلك أفضل من مجيء مخلوقات ضعيفة لا تتوافق وشكل حياتهما. وحول شكل الحياة هذا لم أستطع استنباط شيء واضح. كانا يسافران كثيراً، ويدرسان ويقرأان ويكتبان ويرسمان. أَوَهذا شيء سيّئ؟ لم يؤكّد لي أحدٌ ذلك صراحةً. وإنْ كان المسؤولون يهزّون عادة أكتافهم وينهزون رؤوسهم كلٌّ بدوره،

ويبتسمون. وفي أحسن الأحوال، يتمتمون بشيء من الفوقيّة، بكلمات مثل هما فنّانان، بوهيميان، غامضان غير مسؤولين. وما كانت تغيب صيحة: عاشت اللامبالاة. وكانت العمّة بِرتا أخت أبي أكثر أعضاء العائلة ميلاً إلى انتقادهما. لكنّ العمّة برتا كانت تحسب نفسها كاملة، وكان يُعجبها أن تتدخّل في ما لا يعنيها، وألّا تقبل شكلاً آخر للحياة غير شكل حياتها، وكانت تعلن الحرب على كلّ من يجرؤ على معارضتها. وأنا كنت أبغضها، وكانت تعلم ذلك، كنت أبغضها عن حقّ. فقد حطّمت ألبومي: «عروق بشرية»، ورسومي وتوضيحاتي. «هذا غير سليم»، حكمت ذلك اليوم إزاء أكبر اضطراب أعانيه مطلقاً. «عليكِ أن تزوري طبيباً!». هكذا كانت العمّة برتا. ولو كان الأمر منوطاً بها لأرسلتنا جميعاً إلى المصحّة النفسية لأيّ سبب. لكنّ هذا حدث منذ ثلاث سنوات على الأقل، لمّا كنت في العاشرة وأُوشك أن أُتمّ الحادية عشرة إبّان إقامة محزنة في بيتها على الشاطئ. وكذلك كان الوقت صيفاً كما هو الحال الآن. لكنّنا نذهب اليوم مسرورَيْن على متن عربة من عربات الخطّ ونحن ننظر باستغرابٍ، حتّى كان يُلبَّس علينا كلّما كنّا نتقدّم ونكتشف ونحن ملتصقان بالنافذة الصغيرة أنهاراً ذوات مياه شفّافة وغابات صنوبر، وبيوتاً من حجر ذوات سقوف من الأردواز كالتي كنّا نراها في البطاقات البريديّة فحسب. ولمّا بلغنا آخر قرية في الرحلة رأينا الخالَيْن جالسين في حانة الساحة. فجاءا مُسرعَيْن وساعدانا على النزول، وتولّيا أمر حقائبنا. وأحسب أنّهما استقبلانا حينئذٍ قائلين: «وازي، وازي». لكنّا كنّا مسرورين جدّاً أنا وأخي حتّى لم ننتبه إلى ما قالاه.

كان للهواء رائحة الزبل والدجاج والماعز كما كان أُكِّد لنا. لكن، ليس كذلك بيت الخالين. وما إن دخلنا حتّى فوجئتُ بأخي يمدّ رأسه، ويتشمّم

كلّ شيء كأنّه كلب صيد. ولم أنهرْه. لأنّي أنا أيضاً كنتُ أعمل العمل ذاته وإن يكن بطريقة أكثر تحفّظاً. كانت الرائحة نفّاذة، وما كان يمكن القول ما إن كانت طيّبة، أم هي على العكس من ذلك تماماً. هي خليط من رائحة موادّ الرسم والبسكويت والشوكولا والخمر والعطر وربّما البخّور كالذي في الكنائس. وسرعان ما سوف أعلم أن إحدى تسليات بالِريا كانت تحضير عطور، وبعضها كان يخرج جيّداً وبعضها الآخر ليس كذلك. لكنّ أكثر ما أثار انتباهي ذلك اليوم كان المطبخ من غير أن أكون بعدُ على معرفة بشيء تقريباً. كان كبيراً وغاصّاً بالأنابيب وأنابيب اختبار، شبيهاً بمختبرات سحَرة كالتي كانت تظهر في بعض الأفلام. وقد أُعجبنا به كلانا. وكان كلّ شيء مختلفاً عمّا كنّا عرفناه حتّى ذلك الحين، بدءاً بهما، بخاليّ. هذه أوّل مرّة نكون فيها وحيدين وجهاً لوجه من غير أعين بقيّة العائلة وهي تراقبنا. وبدا لنا الصيف الذي كنّا بدأناه في تلك اللحظة ملآن بالوعود والاكتشافات. وأسكنانا حجرة واحدة، وهي مخدع ضخم. وبينما كانت بالِريا توزّع ملاءات ومناشف، سألنا تريستان على شكل مسارّة: «كيف حال أبيكما؟ أهو بخير؟».

نفينا بإشارة من رأسينا. إنه مريض، ومريض جدّاً. وهو بحاجة إلى الهدوء والراحة. لذلك وُضع في غرفة الطعام في البيت، ولذلك قرّروا أيضاً أنّه من الخير للجميع أن نقضي أنا وبدِريتو شهر آب معهما.

– ولِمَ لا يكون في بيت برتا؟

وما كان الخال يعرف اللفّ والدوران. وهذا ما أعجبني فيه أيضاً. بل كان صريحاً ومباشراً. وكان دهِشاً كما كنت أنا وأخي. فنهزت كتفي.

– أمّي قالت الهواء النقي والبيض الطازج وحليب الماعز...

وشرع تريستان يضحك مقهقهاً. وبدا لي الآن أكثر شباباً. ولربّما بسبب ذلك واتتني الجرأة لأقصّ عليه خلافي مع العمّة برتا، أو بالحَرَا بغضي لها. لأنّني لن أنسى أبداً ذلك اليوم في بيت مقابل البحر لمّا آثرتُ البقاء في الحديقة أخترع عروقاً بشرية، على الذهاب إلى الشاطئ. لكن، لم يخطر ببالي أن يكون هذا الأمر سيّئاً. وما زلت على يقين من أنه لم يكن كذلك. وهكذا نظرتُ إلى تريستان وبدأت من البداية.

فحكيت له أنّ لي زميلة في المدرسة كان لديها ألبوم كانت تُلصق فيه كلّ أسبوع صورة جديدة. كانت صوراً ملوّنة وتمثّل رجالاً ونساء من أماكن بعيدة، مع حَلَق ضخم معلّق في الآذان مثلاً، أو بالأنف والشفتين. كانوا من عروقٍ سود وحمر وصُفر وبيض أيضاً. بعضهم كانت تسريحات شعورهم جدائل، وبعضهم كانت شعورهم طويلة ومشعّثة. وأخيراً، كان قليل منهم يحلقون رؤوسهم جزئيّاً أو بشكل كامل. وتحت الصور وإلى جانب منها كانت أحياناً شروح لعاداتهم المختلفة جدّاً عن عاداتنا، وغريبة جدّاً. وكنت أرغب في أن يكون لي مجموعة مشابهة. لكنّهم في جمود القرية ما كانوا يعرفون شيئاً عن الألبومات ولا الصور، على الأقلّ تلك الصور. فعزمت على أن أقوم بذلك بنفسي. فابتعت ورقاً وورقاً شفّافاً وأقلام تلوين، وبدأت مجموعتي الخاصّة: عروق بشريّة. وكنت أعمل فيها منذ الصباح. فاخترعت شعوباً وقبائل وأسماء، خاصّة عاداتٍ، وكلّها نادرة جدّاً كالتي في ألبوم زميلتي. وكنت في ذلك لمّا ظهرت عمّتي برتا.

كان تريستان يُصغي إليّ باهتمام. وتابعت حكايتي له كيف أن العمّة برتا اقتصرت في البدء على النظر من فوق كتفي إلى ما كنت آخذةً في صنعه. ذلك في البدء فقط. وكنت أشعر بمقدار زائد من الغضب كلّما تذكّرتها. لكنّ غضب تلك الأيام تحوّل الآن إلى شكر لمّا عشت تلك اللحظة مرّة

أخرى. فلو لم تَدْعكِ العمّة برتا ألبومي وتدوسه، ولو لم تعنّفني كما تفعل حينما تتحدّث عن الأطبّاء والألعاب السيّئة، لمَا كنت قصصت شيئاً على تريستان عن مجموعتي للعروق. وهو على الأرجح، ما كان عزم على أن يُدخلنا عالم أسراره.

«أنتِ مشروع عالمة أجناس بشرية» - قال حينئذ ببساطة.

ولمحت لُمعة من كبرياء في صوته. وحاولت أن أتذكّر ما الذي كان يعنيه بالضبط بقوله «عالمة أجناس بشرية». كنت أعلم ذلك، لكني لم أكن على يقين.

«وهذا ما كان ليُعجب في شيء عمّتك برتا» - أضاف فوراً بشيء من الإسرار.

***

تلك الليلة سألتْ بالِريا بدريتو بعد العشاء ما إن كان يشتهي كأساً من الحليب. وفوجئتُ أن وافق بحماس. لكنّها لم تسْعَ باحثة عن عنز لتحلبها هنا في المكان عينه كما كان يتوقّع أخي يقيناً. وإنّما فتحت الثلّاجة وأخرجت عبوة من الكرتون عاديّة وشبيهة جدّاً بما في بيتنا. وعمدتْ في الحال، من غير أن تتنبّه إلى خيبة الأمل البادية على وجهه، إلى جمع شعرها الأسود الطويل على شكل ضفيرة. وارتدت صداراً. ونسيتنا وأخذت تذوّب مسحوقاً في صحن وتسحن عشباً في هاون. وفي الوقت ذاته نظّف تريستان الطاولة ونشر فوقها خريطة وثبّت أطرافها بأوّل شيء وجده في الخزانة: مثل مكواةٍ عتيقة، أو طنجرة محطّمة أو حجر أو إبريق من الفخّار. وتبادلنا أنا وأخي النظرات مضطربَيْن. أيتعيّن علينا أن نودّعهما وننسحب لننام؟ أم نستطيع المكوث معهما مدّة أخرى في المطبخ؟ والآن فهمت أن

الوضع الجديد علينا، هو أيضاً غير واضح لهما كثيراً. فلم يكن من عادتهما أن يتعاملا مع أطفال ولا مع مراهقين. وعلى الأغلب أنّنا كنّا في نظرهما سواء تماماً. بِدْريتو في التاسعة من عمره، وأنا كنت أوشك أن أتمّ الرابعة عشرة. لكنّهما حسما الشكّ، إن ساورهما الشكُّ في لحظة ما، لصالح المستوى الأعلى. وباستثناء كأس الحليب لأخي كلّ ليلة (وكانت أمّي تلحّ يقيناً على هذه النقطة)، كانا يعاملاننا من غير كلفة سواء بسواء كراشدَيْن أو صديقين. وهو شيء لم يخطر لأحد منّا ببال حتّى ذلك الوقت.

«حسن!» -قال بينما كان يثبّت الخريطة جيّداً- «أسمعتما أحداً ذات مرة يتحدّث عن الوازي-وانو؟».مكتبة .. سُر مَن قرأ

فنفينا بهزّ رأسينا. لكنّنا أدركنا أنه يدعونا للمشاركة في السهرة.

- هذا لا يدهشني. وفوق ذلك، لو قلتما: نعم، لمَا صدّقتكما. لكنّي سأبدأ من البداية لتحديد موضعكما وموضعي. أنا كما تعلمان، خالكما الأخ الوحيد لأمّكما الحبيبة، وزوج بالِريا التي لا نظير لها -والتي حيّت بانحناءة من رأسها من غير أن تشيح بعينيها عن الهاون-، وعالم أجناس بشرية وسط اختصاصات أخرى ليس من الملائم الآن ذكرها، لكنّها قد توحي إليكما بشيء ما. أنا فنّان وغامض وبوهيمي وغير مسؤول وطائش.

«وعاشت اللامبالاة!» - صاح أخي متمتماً. أمّا أنا فرغبت بكلّ قواي أن تبتلعني الأرض.

- وهذا أيضاً. كيف تأتّى لي أن أنساه؛ شكراً لك لأنّك ذكّرتني به، يا بدرو! والآن يخطر لي أن نسمّي البيت بهذا الاسم. ما رأيك يا بالِريا؟ عاشت اللامبالاة، هو اسمٌ جميل لبيت.

ووافقت بالِريا باسمة. واستمرّت في طرْق الهاون بإخلاصٍ حقيقيّ

وكأنْ لا شيء في الدنيا يفوقه أهميّة. وقد اكتسب إيقاعاً منتظماً وحتّى موسيقيّاً. كان نوعاً من موسيقا مرافقة تلطّف كلمات تريستان. لكنّه كان يكتسب في لحظات الصمت هذه بطولةً غير متوقّعة. وكان لطيفاً سماعُه، والاستسلام لنغمته بينما أخذت تنتشر في المطبخ رائحة تراب وخُضرة وورق شجر وحقل ممطور، ورائحة شيء آخر لم أتعرّف إليه؛ لكنّه بدا لي أنّه يصارع ليبرز ويفتح لنفسه طريقاً وسْط روائح العطور الأخرى وليهزمها!

«له رائحتنا» -عاد تريستان مرّة أخرى إلى الكلام. ومضت موسيقا بالِريا إلى المقام الثاني- «وإذْ كنّا بين أصدقاء وليس في مؤتمر ولا في محكمة أيضاً، فسوف أوفّر عليكما المقدّمات. لكن، عليكما أن تعلما، وإن لم يكن ذلك إلزامياً بالضرورة، ولكنّه تحوّل إلى ممارسة عامّة، أن تعلما واقعة وهي أنّه قبل عرض نظريّة ما، تُستعمل دقائق معدودة في تحطيم النظريات الأخرى، نظريات أيٍّ زميل آخر سبق أن واتته الجرأة فمسّ الموضوع الذي تُزعم معالجته تباعاً».

كان ينظر إليّ وكأنّنا في مستوى واحد. وكأنّه يرى فيّ عالمة أجناس في المستقبل. لذلك وافقتُ بهيئة من فهم. وما كنت أستطيع أن أُخيّب ظنّه.

- إلّا أنّي أقول إنّ أيّ دراسة افتراضيّة حول الوازي-وانو يجب أن نوليها في البدء مصداقيّة دنيا. وكذلك الصور الضوئيّة أيضاً المُلتقطة بعدسات شيئيّة قويّة بعيدة المدى، وكذلك الأخبار عن رؤية مساكنهم الخياليّة من مسافة بعيدة. وكلّنا يعرف ذلك. فمن السهل خلط الرغبات بالواقع.

وتوقّف؛ فسيطر الإيقاع الذي كانت بالِريا مستسلمة له، ورائحةُ الأرض المبلولة على المطبخ. وكانت سبّابة تريستان تجوب الآن خضرة

الخريطة الضخمة. «الأمازون!» تمتم محزوناً. «آمازونيا!». وتابعته بالنظرة من غير أن أهتمّ بأنْ يشيَ وجهي بالجهل، ولم أزعج نفسي بأن أدّعي فهماً أفتقر إليه. وتركّز اهتمامي كلّه على المنطقة الواسعة المنشورة فوق الطاولة، التي عرضتْ فجأة، وكأنّي أراقبها بعدسة مكبّرة قويّة، كلّ فروق اللون الأخضر الممكنة. اللون الزيتوني والزمرّدي والتركوازي والنعناعي والليموني الحلو... وهيمن صوت تريستان على دماغي وكأنّي أتوغّل في حلم أو غفوة لذيذة.

وكان هو الشيء الوحيد الموجود في المطبخ. صوته القوي والمتبدّل.

«رغبات وواقع...» -كان يردّد الآن- «لا شيء أسهل من خلطهما معاً لا سيّما في تلك الغابات. رغبات مُنتزَعة بالسّبات والخدر المحموم، أو بهذه الأحلام المضطربة الخاصّة جدّاً بتلك المناطق التي يلتقي فيها الماضي والحاضر والمستقبل وتبدو لنا حقيقيّة جدّاً، ويلتبس الأمر علينا حتّى عند الاستيقاظ، ونبطئ في العادة ساعاتٍ وحتّى أياماً في التعرّف إلى أنفسنا ونقبل التحدّي».

وتابع وهو ينظر إليّ بإمعان، لأنّ الأشخاص يستطيعون طوال مدّة الحلم أن يتحوّلوا إلى آبائهم ذاتهم أو إلى أبنائهم أنفسهم وإلى السكّان المحليّين من تشيبو-كاتالائيبو، واليانومانيس أو الآوا، إذا ذكرنا بعض الأمثلة. ويمكنهم أيضاً أن يتحدّثوا أو يغنّوا أو يصفّروا بلسان البِراهايّين، بل يقدرون على شيء أكثر أهمية هو أن يسمعوا ويحفظوا كلمات الوداع التي نطق بها آخر فرد من «الباكاهوارا» في الدنيا. وهنا توقّف تريستان، وأنا أخذت نفساً. فلم أكن أستمع قطّ حسبما أتذكّر إلى أحد بهذا الإصغاء.

– وهذا هو أحد أثمن الأحلام. إنّه امتياز وشرف أكبر لأيّ منا أن ينظر

الباكاهوارا إلينا وهو مضطجع على حصيره وقد أُثيرت مشاعره. كان يعلم أنّه سيموت. وما كانت توجد وسيلة لإطالة مدّة وجوده، ويعلم أيضاً أنّ لغته ستختفي بموته، والقليلَ ممّا كان يتذكّره من تلك اللغة التي غزتها بادئ الأمر لغاتٌ أخرى أقوى منها، ثمّ نُسيت بعد ذلك لكونه آخر فرد من أبناء شعبه ولا يجد من يحدّثه بها. لكنّ الباكاهوارا (إن كان رجلاً) يستذكر في تلك الساعة المأساوية وهو في النزع، آباءه وأجداده والأساطير التي رووها له صغيراً، وأوّلَ قوس له وأوّل سهم، وتلألؤ الأسماك الفضيّة التي كان يطعنها في تلك الأيام البعيدة بقصبة مسنونة. أو إذا كان الباكاهوارا موضوعُ الحلم امرأةً، فإنّها تستذكر الثياب المغسولة في النهر والأغاني التي ترافقها بها، بينما تدقّ القلقاس في حوض، وتستذكر آلام الولادة وأسماء الذين غابوا والأزمنة التي لم تكن فيها وحيدة. وكانت لا تزال تستطيع أن تلفظ وتسمع كلمات تعود الآن فجأة قويّة إلى ذهنها بعد أن هجرتها طوال سنين. لأن هذا ما يحدث في الحلم لآخر فرد من الباكاهوارا، إذا كان المقصود رجلاً أم امرأة. فكان يستردّ الذاكرة القديمة ويمحو الحديثة، ويشير بإصبعه إلى من يحلم به ويمسكه بيده، ويقوم بجهدٍ فائق، فيخصّه بالكلمات التي ستكون أيضاً الكلمات الأخيرة في الدنيا منطوقة بلغته، ولا يجهل هو ولا المُرسل إليه ذلك.

وكلّما كان يتكلّم كنتُ أنا أعمُرُ تلك الأرضَ ذات الخضرة اللامتناهية بالأشباح التي كان يثيرها. وكنت أشعر بما كانوا يشعرون به. ونعلم أنّ انفعال الأنتربولوجي والرائد أو الرحّالة يكون فريداً في تلك اللحظات. فلم يفهم شيئاً ممّا قاله المُحتضَر، ويجهل ما إن كان أفصح له عمّا يريد، أو إن كان ألقى إليه بحكمة، أو وصمه ببساطة، بحماقة ثقيلة، أو قذفه بجملة ليس لها أدنى معنى. لكنّه تحوّل إلى متلقّي رسالة لن يستطيع أحدٌ

أن يفكّ رموزها أبداً. كان بطلاً فريداً للحظة تاريخية، ولسوف يرافقه صوت كلمات المُحتضَر أياماً وأياماً، وهو لن يفتأ يكرّرها ليحفظها، إلى أن يحكي له عالم أجناس آخر أو مستكشف أو رحّالة عن لقاء مماثل، وعن آخر كلمات آخر فرد من الباكاهوارا، رجلاً كان أم امرأة، وعن تراث لغة منقرضة ثمين، وعن الإيقاع الذي لا يُنسى لتلك الجمل الغامضة التي تعلّمها وحفظها وثبّتها في ذهنه لينقلها إلى الخلف. وهنا في هذه النقطة تنحلّ العقدة. فما كان يتذكّره عن ظهر قلب عالم الأجناس والمستكشف أو الرحّالة الثاني (ويستعدّ لنقله وقد احمرّ من الانفعال) لا يشبه في شيء الكلماتِ والأصوات والنغمة التي ثبّتها الأول بالمنقش في ذهنه.

«وبعد لحظة مُرّة» -اختتم الآن تريستان كلامه- «سوف يتفاهم الاثنان كلاهما من غير حاجة إلى أن يقولا شيئاً. إنه خدر المناخ، وتحقيق الرغبات وألعاب الغابة والأحلام».

هوّم بدريتو تهويمة فوق الطاولة. وفي الوقت ذاته تقريباً انفجر الهاون البلّوري الذي كانت تعمل به بالِريا وسقط على الأرض. أو لعلّه سقط على الأرض أولاً ثم تفجّر إلى ألف قطعة. لكنّ الثابت أن شابورة قويّة سيطرت على المطبخ. فتعرّفتُ إلى رائحة الخضرة والمطر والأرض الممطورة وورق الشجر... لكن الفوحان أيضاً، الذي كان يناضل ليكسب مواقع. وقد انتصر في النهاية. الآن، نعم، أصبحتُ أعرف بمَ يذكّرني. يذكّرني بماء راكد وفاكهة متعفّنة وأطعمة متفسّخة... وحسبت أن أمراً خطيراً سوف يحدث تلك اللحظات، وأنّ تريستان سوف يغضب من زوجته، أو أنّ بالِريا سوف تتلاشى في الاعتذار بسبب الكارثة. فكّرت في ذلك بحماقة متذكّرة الضجّةَ التي كانت تُثار في بيتنا إذا سقط من بِدْريتو كأس ماء فوق المائدة أو لوّث الغطاء ببقايا الصلصة أو الحساء. لكنّ حياة الخالين كانت صلتها

بحياتنا هزيلة. وكان تريستان مسروراً جدّاً، وحتى منفعلاً. ولم تتخلَّ بالِريا التي تجلس القرفصاء عن الابتسام. وكانت الآن تُبعد قطع البلّور بكلّ حرص لتستردّ بشكل نظيف ذلك «الطين» ذا الرائحة القويّة وتُدخله في أنبوب اختبار.

«لقد نجحت اليوم!» -قال تريستان- «ولو أطبقت عيني لحسبت نفسي أنّي ما أزال هناك».

ودهنتْ بالِريا صدغيها بقليل من النشاء وكذلك معصمَيها أيضاً.

كانت تبدو متألّقة. فانثنيتُ أنا أيضاً وصررتُ بعض الخُثارات في منشفة ورقيّة.

«يا للأعجوبة!» - صاح تريستان أيضاً.

ولمّا وصلت إلى الحجرة سجّلت في دفتري بعض الأسماء لكيلا أنساها: يا نوماني، آوا، باكاهوارا، وازي-وانو.... ووضعت خطّاً تحت باكاهوارا (لأنّهم كانوا أبطال الليلة) وأضفت سؤالاً عن الوازي-وانو (لأنّي كنت أعرف عنهم أنْ لا أحدَ كان يعرف عنهم شيئاً). وكان بِدْريتو ينام كأنّه جذع شجرة. ومن غرفة الخالين كانت تصل ضحكات وكلمات طليقة تحوّلت في الحال إلى وشوشات وأنّات. لكني كنت قد رأيت أفلاماً، وكنت كبيرة إلى حدّ ما حتّى أدرك ما يجري. فسددت أذنيّ بمنديل ودهنت جبهتي بالطين القليل الذي جلبتُه في المنشفة. كانت له رائحة قاتلة. لكنّي كنت أرغب في التشبّه بالخالَين، وأن أعوّد نفسي. فإذا كانا هما مُعجبين بتلك الرائحة، فلن أكون أقلّ منهما إعجاباً.

***

كان الخالان يسيران حافيي الأقدام في البيت دائماً. وكانا كلّ صباح،

يقومان بتمرينات رياضية وهما عاريان. ثمّ يرتديان ثيابهما للفطور. لكن، بدا لي أنّهما إن كان يفعلان ذلك، فهو بسببنا، لكيلا يخطر ببال بِدريتو أنْ يقصّ ذلك على أمّي، فتندم لأنّها أرسلتنا إلى عند أخيها. كانت أمّي تهتف لنا كلّ ليلة قبل العشاء. وكان تريستان يخبرها أنّ كلّ شيء على ما يُرام. وكان يسألها: «أهناك شيء جديد في القصر؟»، تلك كانت طريقته في الاهتمام بصحّة والدي من غير أن يثير ذعرنا. ثم يرسل إليها قبلة كبيرة جدّاً، ثم يعطينا السمّاعة، فأكرّر عليها: «كلّ شيء على ما يرام». أمّا بدريتو فكان ينقل إليها كومة من الأشياء: أنه ما كان ينسى كأس الحليب، وأنه كان يسبح في نهر بارد جدّاً، أو أنّه سيصبح متوحّشاً متى كبر. حينئذٍ كانت أمّي تشرع في الضحك. ونلبث جميعاً ساكنين.

كان الهاتف هو الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم الذي خلّفناه وراءنا. وهو جهاز قديم موضوع في وسط الممشى بالضبط. وكان صوت من يهتف به يصل حتّى آخر ركن في البيت وكأنّنا ندع المذياع شغّالاً. لكن، لم يكن لدينا مذياع. كان الخالان يحبّان أن يستمعا للريح والمطر والجداجد ودجاج الجيران، أو لثغاء الماعز الذي كان ينزل من الجبل كلّ مساء. وكانت بالِريا تغنّي أحياناً. نعم، هي كانت تُتقن الغناء. كانت تدندن بلحن من غير صوت أو على الأقل، من غير كلمات يمكن لي أن أفهمها. كانت تصرخ وتضحك، وأحياناً كانت تبدو أنّها تبكي. وكان تريستان يحكي لنا بصوت خفيض جدّاً، أنّها كانت من قبل ممثّلة، وكان يلذّ لها أحياناً أن تتذكّر ذلك. وكان لديّ كثير من الأشياء ربّما كنت أريد أن أسألها عنها. (عن حياتها ممثّلةً، وعن أسفارها، أو، متى وأين تعرّف أحدهما إلى الآخر). لكنّي آثرت السكوت لكيلا أبدو لها مفرطة في الفضول. ولا أدري ما إن كنت أحسنت صنعاً. وما زلت بعد سنين كثيرة أسأل نفسي هذا السؤال. لكنّ

الثابت هو أن كثيراً من تلك الأمور التي كانت تثير اضطرابي، انتهت بأن تجلّت من تلقائها وحدها. السوبر ماركت مثلاً. وبدا لي في البدء غريباً جدّاً أنّ الخالين اللذين يحبّان الهواء النقيّ جدّاً، والأنهار والماعز أو الدجاج، والطبيعة باختصار، ما كانا يشتريان بيضاً طازجاً ولا جبناً ولا حليباً محلوباً حديثاً من الجيران في القرية. بل كانا يُخرجان مرّة واحدة في الأسبوع شاحنةً صغيرة من المرأب ويقودانها على الأقلّ مسافة عشرين كيلو متراً حتّى بلدة أكبر تمتلك سوبر ماركت. ربّما كانت المنتوجات متساوية في الجودة، فكّرت أوّل ما فكّرت. هي بعد كلّ شيء من المنطقة ذاتها، إلى أن أدركت أنّ ما كان يطمح إليه الخالان في الواقع، لم يكن شيئاً آخر إلّا الإبقاء على مسافةٍ محسوبة من أهالي القرية. كانا يلقيان التحيّة، هذا صحيح. وكنّا نذهب من حين إلى آخر إلى الحانة الوحيدة في الساحة لنتناول شيئاً ما. أو ننتظر آخر حافلات اليوم. وكان يلذّ لنا كما كان يلذّ للجيران كلّهم، أن نحصي عدد الركّاب الوافدين وعدد الركّاب المغادرين. ونستبق النتائج. ونقوم برِهانات. ونناقش مع جليسي الطاولات الأخرى القواعد الممكنة للمناقشة. أيُعدّ طفلٌ كراشد؟ وقفص دجاج أيُحسب في العدّ كالكلب أم يُحسب أقلّ؟ ولِمَ لم يحدث حتّى الآن تعادل؟ إلى أن حلَّ تريستان ذات مساء مسروراً محلّ لاعب دومينو وتعادل في عدد من الجولات. لكن، لم يقترب أحدٌ من القرية قطّ، طوال إقامتنا، من البيت ولم يقم بزيارتنا تحت أيّ حجّة من الحجج. يقيناً كان هناك شيء في موقف خالينا كان يُلزم الآخرين باحترام خصوصيّتهما. كانا يبدوان لطيفين وشخصين جيّدين... لكن، هنا كان ينتهي التعاطي مع الناس. كنّا، أنا وبدرو، نعلم ذلك، وكنّا نشعر بأنفسنا أنّنا محظوظان، مثلُنا كمثل آخر فرد من الباكاهوارا، أوّل ليلة.

أو بالحَرَا، كمثل عالم الأجناس، والمستكشف أو الرحّالة الذي كان له الشرف أو الحظّ في أن يحلم هناك في الغابة، بآخر كلماته.

لذلك واتتني الجرأة في الليلة الثانية على أن أتذكّر بعد العشاء.

- كنّا مع آخر فرد من الباكاهوارا. ومع أحلام...

وقد كنت لفظت «باكاهوارا» بكلّ بساطة، ومن غير تلعثم، وأنا على ثقة بأنني سأثير دهشتهما بذاكرتي وبلفظي. لكني لم ألاحظ على تريستان أدنى علامة من الدهشة. ولا على زوجته أيضاً. وبعد دقائق نشر الخال من جديد الخريطة وأغرقها بالخضرة وأخذت بالِريا بسحق ثوم وبذور في هاون حجريّ. وأعلنت: «الموسيقا ستكون اليوم مختلفة».

***

وكانت على صواب. لكن، ليس الإيقاع وحده ما بدا مختلفاً. كذلك أيضاً كلمات تريستان وانفعاله، خاصّة عجلته. وكان فيه قلق غريب لينهي بأسرع ما يمكن موضوعاً، وينتقل إلى موضوع آخر. فخصَّ الباكاهوارا بأربع جمل نطق بها بكلّ سرعة، وفعل الأمر ذاته بالأحلام. وقال لنا لم يكن ذلك غير مقدّمة، ومحاولة ليجعلنا ندرك ما يُمكن للغابة أن تبلغه من براعة، وندرك الأخطار التي تتربّص بكلّ من يتغلغل في أعماقها. وكأنه بذلك يُقفل فصلاً ما كان يرغب في أن يضيف إليه كلمة أخرى. وملأ غليونه مرّة أخرى، وهزَّ رأسه على الإيقاع الذي تسجّله بالريا. وعلى غرار الليلة الفائتة طافت سبابته بخُضرة الأمازون طوال مدّة ما. وخمّنت أنه كان يستعدّ ليتناول ما كان يهمّه حقّاً. وانتظرت صامتة.

«أتريدان أن تعرفا كيف عرفت الوازي-وانو؟» - سأل فجأة.

فتح بدريتو دفتر الرسم وجرّب بعض الأقلام. وهذا خيرٌ له. فإذا

تلهّى، فلن يخرّ نائماً. أمّا أنا فوافقت بهزّ الرأس. وردّدت بصوت خفيض: «الوازي–وانو».

«حسن، إذاً!» –تابع تريستان، وخُيِّل إليّ أنّي اكتشفت بريقاً مجهولاً في عينيه– «كان ذلك منذ بضع سنين. ربّما منذ عشرين سنة. فقد كنت تهتُ وسْط الغابة، وفقدت كلّ إمكانيّة للاتصال ببقيّة أفراد البعثة، إضافة إلى معرفة الوقت. ووجدت نفسي وحيداً منهكاً جريحاً».

وتصوّرته بجذعه العاري، وبنطاله الممزّق، وحزام فيه طلقات، وبندقيّة معلّقة بكتفه. وسألتُ نفسي ما إن كان الناس في الأمازون يستعملون قبّعات كما في إفريقيا في الأفلام. لكنّ السؤال لم يستطع أن يتجاوز تفكيري. وأجبت نفسي حالاً: يقيناً لا يستعملونها. فالأشجار ربّما تكون عالية جدّاً فلا تسمح للشمس بالتغلغل. ولئن يكن قد اعتمرها في البدء، فعلى الأرجح أن تكون سقطت منه بعد مدّة بسبب التعب والأخطار. ولو كنت مكانه لربطتها بمنديل ذي لون أحمر. وفي هذا كان يكمن شرودي. وهي اللحظة الوحيدة التي سمحت فيها لنفسي بأن أشطّ ثواني معدودات عن حكايته. لأنّي ما إن أدركت ذلك حتّى حاولت فوراً أن ألتقط الخيط وأستمع مرّة أخرى له بكلّ انتباه في الدنيا. ومن جديد عمل صوته القويّ المعجزة كما فعل الليلة السابقة وكأنّ الخريطة المنشورة على الطاولة تمتصّ ضوء المطبخ كلّه، وما كان يوجد هناك غير مهرجان الأخضر الذي أخذ ينفتح شيئاً فشيئاً كستارة مسرح. كان تريستان يتكلّم واستطعتُ أن أراه وهو يتغلغل في الغابة وثيابه ممزّقة وعلى رأسه منديل أحمر يغطّي جرحاً؛ كان صغيراً لا وزن له إزاء ضخامة الغابة، ويوشك أن يبتلعه النبات، إلى أن اختفت صورته فجأة عن نظري؛ وشعرت أنني داخل حلقة أو قمع

كان يدور بأقصى سرعة. ولا شيء بعدُ من الأخضر الزيتوني والزمرّدي والتركوازي والنعناعي والليموني. وإنّما هو أخضر فحسب. أخضر من غير لُوينات كانت تهدّد بأن تبتلعني بين لحظة وأخرى. وأدركت حينئذ أنّي، بدلاً من فقداني خالي، كنت أرى بعينيه. وكان تريستان، تريستان الغابة الرجل المجروح، المرضوض والمنهك، في طريقه ليتلاشى بين حين وآخر ويسقط على الأرض. فأطبقت عينيّ لأتحرّر من الدوّامة الخضراء، ومن ثَمّ أنقذه. لكنّي فتحتهما فوراً. وكان خالي يضحك الآن مقهقهاً.

- فقدتُ الوعي، أيّها الطفلان. وأُغمي عليّ وربّما متّ. ولن أستطيع معرفة هذا الأمر أبداً. لكن، لمّا استيقظت وعدت إلى الحياة، ظننت أنّي كنت ضحيّة أحد هذه الأحلام الخاصّة بالغابة التي يتتاخم فيها، كما بيّنت لكما بالأمس، الماضي والحاضر والمستقبل.

وأوّل ما رآه تريستان لمّا فتح عينيه كان امرأةً من عرق مجهول، وهي تنظر بإمعان. كانت قامتها قصيرة جدّاً، وكانت من الناحية العمليّة عارية. وكان على وجهها رسوم غريبة بدت له مدّة لحظات أنّها أشكال هندسيّة ما كان له أيُّ علمٍ بها من قبل. وكانت تحمل طفلين في سنّ صغيرة، في نوع من الخروج بدائيّ معلّق في عنقها. أحدهما على صدرها والآخر على كتفها. وانحنت المرأة فوق رأسه ولم تحرّك شفتيها. لكنّه فهم تفكيرها. فَهِم أنّها ترحّب به؛ وقال في نفسه: «أنا حالم. وقد وقعت في أحد فِخاخ الغابة». لأنّ رؤية المرأة وابنيها بثّت فيه طمأنينة منعشة ما كان يشعر الآن بالقدرة على تفسيرها. وكأنّما كان يعرفها منذ أزمنة بعيدة، أو كان بانتظارها طوال سنين وسنين من غير أن يدري. واستسلم مرّة أخرى ربّما بسبب ذلك كلّه، وبسبب الانفعال والحالة المؤسية التي يوجد جسمه فيها أيضاً.

واستنشق دفقة من الهواء وفقد الوعي من جديد. «أو من يدري ما إن مات مرّة أخرى!»، أشار وهو يشعل الغليون. وانفجر لدهشتي في قهقهة مرّة أخرى.

«الحياة سخيّة أحياناً بشكل مدهش» -قال أخيراً وبريقٌ ما يزال أكثر بروزاً في عينيه- «يذهب المرء بحثاً عن جوهرة، فإذا به يعثر على كنز في وقت هو أقلّ الأوقات توقّعاً له».

توقّف لحظات ما كان يُسمع فيها غير الطرق الذي كانت بالِريا منهمكة فيه. ونظر إلينا وهو ما يزال باسماً وتابع: «البعثة التي كنت أشكّل فرداً منها كانت تتابع أهدافاً أخرى، ولا يهمّ الآن معرفة ما هي. لكنّني، أنا الضائع في ظلمات الغابة، أنقذتني امرأة من الوازي-وانو. وهي التي أدخلتني في أسرار القبيلة».

لأنّ الوازي-وانو كان يُعرف عنهم يومئذٍ أقلّ من القليل الذي يُعرف عنهم اليوم. كان يُعرف عنهم اسمهم، وأخبار ضئيلة غيرُ متماسكة صادرة في معظم الأحيان عن توهّمات المستكشفين، أو الأحلام المتواترة التي يتشبّث بها الضحايا عند استيقاظهم. حتّى أن تريستان لم يُطلق في البدء اسماً على منقذته، ولا على القبيلة كاملة، تلك التي احتفت بعودة الوعي إليه بعد إغمائه ثاني مرّة. إنّما استردّ الوعي ببساطة. ورأى هذه المرّة ستة من الرجال والنساء ينحنون فوق جسمه وينظرون إليه بخليط من الإمعان والذهول. ولم يبدوا له ضواري، ولم يكونوا. لكنّهم كانوا يعرفون كما تبيّن له سريعاً جدّاً، أن يدافعوا عن أنفسهم وينتقمون من الإهانات، ويذوبون في المحيط ويصبحون عمليّاً غير منظورين. وكان اندماجهم في البيئة وموهبتهم الطبيعية في التخفّي سلاحهم الدفاعي الرئيسيّ. لذلك لم يظهروا للعيان إلا مرات قليلة جداً؛ وحتّى في هذه الحالات، إن حدث

ذلك وعرفوا أنّهم فوجئوا على الرغم من البعد، فإنّهم كانوا يستطيعون أن ينزلقوا كالسّلور، ويتسلّقوا الأشجار إلى ارتفاعات غير متوقّعة أو ينتشروا في كل الاتجاهات. وكانوا بحاجة إلى وجود يتجاوز حدود الخرافة، يتجاوز حدود الخوف اللامعقول، خوف القبائل الأخرى منهم، أو حكايات الخشّابين الغامضة، الخشّابين قساة القلوب، مكتسحي الغابات. هم رجال جفاة قساة تكرههم العروق كلّها، ولا ينون عن الزحف لإزالة الأشجار. لكنّهم كانوا في آن واحد فريسة الذعر من هجمات الوازي وانو (وهكذا عُرفوا بهذا الاسم أيضاً)، وكانوا عاجزين عن قتال عدوّ لا يسمح بأن يُرى أبداً. كانت السهام تنبثق من الغابة وكأنّما تطلقها الأشجار ذاتها التي كان الغزاة يتطلّعون إلى قطعها، سواء أشجار الإيبِه أو لاباتشو(*) أحد أثمن أنواع الأشجار، أو أيّ ضرب من أنواع أخرى؛ يُقال إن أكثر من خشّاب، حسبما يُروى، فقد عقله، وإن العالم النباتي بكامله قد اتّحد دفاعاً عن سلامة كيانه كله. لكن، يُقال أيضاً إنّ خلفَ هذا الانتقام المنظّم، تُوجد إرادة شعب وقوّته. لذلك كانت السهام تشقّ الهواء وهي تصفّر وازي ي ي وانووو... أو هذا ما كان يُحكى على الأقلّ، في مناشر الخشب وفي فرق الخشّابين.

«وأنا لن أقول لا» -وكان تريستان يلفّ الخريطة بكلّ عناية وكأنّ الجلسة شارفت على الانتهاء- «من الممكن أن يكون أصدقائي وقّعوا باسمهم طيران سهامهم... لكنّني لا أستطيع أن أتحدّث عن هجماتهم إلا سماعاً. ولم أشعر بالخوف قطّ. وحتّى قبل أن يحرّكوا شفاههم كنت أشعر بالأمان».

وهكذا، وعلى غرار ما قالته المرأة من قبلُ من غير أن تتكلّم: «أهلاً

(*) ضربٌ من الشجر في أميركا الجنوبية، خشبه قويّ لا يفسد. (م).

بك»، كذلك القبيلة كلّها كانت تُبلغه الآن خير نواياها وتُعلمه بنُتف من تاريخها، وتحتفي به في القرية كأنّه واحدٌ آخر منهم، وتنذره بأن يحافظ على سرّ وجودها كأثمن هبة في الحياة. وكان يسمع في داخله الكلمات التي لم يكن يلفظها أحد، وكأنّه هو من كان يفكّر فيها أو أنّه ما يزال تحت تأثير الإغماء. لكن، لا شيء في الواقع من ذلك. لأنّه لمّا شكر لهم في لحظة ما -وبالذهن دائماً- حُسنَ التدبير والعناية به، أحسّ بما يشبه تيّاراً كهربائيّاً يسري من أفكاره ويضيء جباه المحسنين إليه. والأمر ذاته معكوساً. فلمّا كانوا هم يجعلونه يتغلغل في تاريخ أسلافهم ويكرّرون عليه أنْ ليس له ما يخشاه ويبيّنون له مزايا بعض النباتات التي أخذوا يعالجون جروحه بها، لاحظ قوّة غير منظورة وطاقة يبثّها الوازي وانو كانت تخترق رأسه وتدعوه للحوار. كانت تلك، كما سيعلم فوراً، إحدى طرق التواصل العديدة لديهم. وكانوا يستعملونها في الغالب الأعمّ، حينما يتربّص بهم خطر أو إذا كان أعضاء القبيلة متفرّقين، أو حينما يريدون -وهذا فقط بشكل استثنائي جدّاً- أن يقيموا صلاتٍ بناس مثل تريستان ليس لديهم أدنى معرفة بلغتهم. لأنّهم هم يمتلكون لغة جميلة موسيقيّة ومعقّدة يستوي فيها ما يُقال وما يُسكت عنه. وما كان تريستان يعرف قطّ شعباً يقدّر الصمت ويثمّن الكلمة في مداها الصحيح مثلهم.

«وأوّل ما سمعته من شفاههم» -تابع- «كان وازي ي ي، وهم يمطّون حرف ي، جاعلين القوّة كلّها على الحرف الأخير. بدأ رجل ثمّ تلته امرأة ثم القريّة كلّها».

ولم يلبث تريستان -كما سيروي فوراً- أن تحقّق من أنّ أولئك الناس كانوا يسمّون أنفسهم بهذا الاسم، على الأقلّ كانوا ينطقون بالقسم الأوّل

من الاسم الذي كانوا يُعرفون به. لكنّه أدرك بعد أيام قضاها في القرية وقد التأمت جروحه بشكل كامل تقريباً، ما كانت تعنيه الكلمة: «فهي تعني رضاً وترحيباً وقبولاً بأحرف كبيرة». أمّا وانو فهي على العكس من ذلك تماماً. فقد شهد في مناسبة واحدة فقط «الوانووو» الرهيب قابضاً على أحد أعضاء قبيلة أخرى كان اقترب من ربعهم، وكان يزعم، حسبما بدا له، أنّه يفاوض من أجل السلام، ويطلب معلومات ويقترح مقايضة، أو ربّما يحذّر من خطر داهم. لكنّ الوازي وانو لم يوافقوه على ذلك؛ وهو لم يبقَ له من وسيلة -حسب خالي- إلّا الإقرار بخطئه. إذاً، ظلّت وانووو مطبوعة في الهواء كأنها إنذار، أو سبّابة توجّه اتّهاماً، أو سيف رئيس الملائكة اللامع وهو يطرد أبوينا الأوّليْن من الجنّة. هي كلمة لا يوجد ما يقابلها بشكل صحيح في أيّ لغة، وإنّ كلمات من أمثال: «اذهبْ»، أو «انصرف»، أو «لا نريدك»، أو «اخرج»، أو «كفى!» وكلمات أخرى كثيرة ما هي إلّا تقليد سخيف ضعيف ناقص ومن غير قوّة لها. وانووو كانت تعبّر عن الرفض الكلّي. هي طلقة كانت تدخل الآذان وتخترق الروح.

وسكت تريستان مفكّراً، ولم يجرؤ أحدٌ منّا على تحطيم الصمت. وما كان يُسمع مدّة ثوان معدودات غير الإيقاع الذي كانت تتركه بالِريا في دَمان الليل، وبدا لي أن رائحة الثوم ستصبح أكثر سطوعاً وتهدّد بأن تسيطر على المطبخ وتخنقنا.

«والآن، هيّا إلى النوم» -قال تريستان فجأة وهو متعب- «ودَعي عملك يا بالِريا، اليوم لم تنجحي فيه!».

فهزّت بالِريا كتفيها، وقبّلت كلّاً منّا وداعبت رأس أخي وأفرغت ما في الهاون في القمامة.

***

وبدءاً من ذلك الوقت ما كان علينا إلّا أن ننتظر حلول الليل لنعود إلى الغابة. وفي اليوم التالي أخذت بالريا تجدل أغصاناً وأوراقاً قرب النهر على طريقة الوازي وانو. وبيّنت لنا كيف ندخل المياه على رؤوس أصابع أقدامنا، منزلِقين بهدوء من أعالي الشجر. وكرّرت: الدخول وليس الاقتحام والاندفاع. والمقصود أن نصنع ما كانوا يصنعونه هم ونفسح المجال لكي يفتح النهر لنا أبوابه من غير اغتصاب له، أو مفاجأته، أو إيقاظه من نومه بشكل فظّ. وكان يبدو لي أحياناً أنْ لا شيء ممّا كنت أعيشه يمكن أن يكون حقيقيّاً، كرؤيتي لها وهي تتسلّق شجرة، أو تتشبّث بالأغصان وتنثني كالخيزران وتندفع كطائر في الهواء وتدخل النهر بشكل جليل. وما كانت تلبس ثوباً للسباحة؛ وإنّما هو منديل من القطن تلفّه على جسمها. وربّما من أجل ذلك، كنّا نسبح في غدير بعيد إلى حدٍّ ما عن القرية، حيث لا يستطيع أن يطرأ علينا أحد ولا يكتشف ألعاباً قد لا يفهمها. لأنّ بالِريا إضافة إلى أنّها ما كانت تشبه أحداً من عائلتنا، فهي ما كانت تشبه أحداً من أبناء القرية. وحينما كانت تقذف بنفسها في الماء راسمة نصف دائرة في الهواء فإنّها كانت تذكّرني بحيوان متوحّش أكثر ممّا تذكّرني بإنسان. وقد رسمها أخي ذلك الصباح بجسم جاغوار، وجمّتها في الريح. أمّا هي فقد أخذت تضحك. أمّا أنا فقد ظللت في المقابل صامتة. وهكذا كانت بالضبط كما تصوّرها بينما كانت تقفز.

وظللنا أثناء الغداء متعلّقين بالوازي وانو وأردنا أن نعرف ماذا كانوا يأكلون، وماذا يشربون، وبأيّ نباتات كانوا يتداوون إذا وقعوا مرضى. فعلمنا فوراً أنّ كلّ ما تنتجه أراضينا هنا له ما يناظره في أراضيهم، وأنّ بالريا ما كانت تتطلّع إلى شيء آخر الليلة الفائتة وهي تهرس بشكل مجنون بعض رؤوس الثوم، إلّا أن تقلّد الـ: «بو-أو-هو»، أو ثوم الساتشا، وهي

شجيرة أوراقها تشبه الثوم الشائع عندنا، وهي نبتة هامّة كانت تضيء الذهن إضافة إلى خصائص أخرى. وكان أبناء المنطقة يستعملونها أحياناً تابلاً. وبيّن لي تريستان أنه لفهم عظمة الغابة وأهميّتها يجب علينا ألّا نتأمّلها من الخارج، وإنّما من الداخل، وكأنّنا وُلدنا هناك، ونرتبط بها ارتباطاً كاملاً. لأنّ الغابة هي في آن واحد ورشة وصيدليّة ومستودع لا ينضب نجد فيه دائماً أغذية، وهي خير مخزن يموّن العالم. والغابة كانت تحمينا، وتشفي آلامنا وتُمِدّنا بالملبس والطعام وبموادَّ لبناء مساكن أو أسلحة ندافع بها عن أنفسنا. واختتم: «الغابة هي أمّنا الكبرى».

كنت أصغي مسحورة كعادتي دائماً منذ أن وصلت بيت الخالين. لكن، كان هناك شيء لم يتضح لي، وكنت هذه المرّة على استعداد لأسأل. فحاولت أوّلاً أن أنظّم الوقائع ذهنيّاً. كان تريستان وبالِريا يقضيان النهار وهما يتذكّران الوازي-وانو. أوّل ليلة حصلتْ على عجينة نشاء كانت نسخة عن رائحة الغابة؛ وحاولت الليلة الثانية أن تنقل وهي تسحق ثوماً إثر ثوم من غير أن تحصل عليها، رائحةَ الـ«بو-أو-هو» المسمّى أيضاً ثوماً لأنّه كان يشبه ثومنا المعروف. ولم يَفُتني حينئذٍ التفسير المحال لهذا السفر الطريف ذهاباً وإياباً. فالمستكشفون وعلماء الأجناس والمبعوثون الدينيّون يسمّون شجرة معيّنة برّية تذكّرهم بثومنا، باسم ثوم ساتشا. ويسعى الخالان الآن إلى أنْ يذكّرهما ثومُنا المعروف بأوراق شجيرة كانا عرفاها في الغابة. كما لم أنسَ في أيّ لحظة أنّهما كانا حرّين وليس لهما أبناء ويقضيان الحياة في الأسفار، ويعملان ما يحلو لهما. لذلك سُمّيا: اللامباليين. وإني، نعم، واتتني الجرأة هذه المرّة لأسأله: لِمَ يحتبسان في هذه القرية الضائعة في الجبل إن كانا لا يرغبان في شيء آخر إلّا في العودة

إلى الأمازون؟ ما الذي يمنعهما من الذهاب ليعيشا مع الوازي-وانو؟ وشرع تريستان يضحك. وإذْ كان كالعادة دائماً، ينفجر في قهقهة، فبدا لي أحدث سنّاً، وأجمل.

«نعيش هناك؟» -همس في أذني- «هم يعيشون معنا».

ثم أمسكني في الحال تقريباً، ونظر إليّ في عينيّ وبنبرة طبيعية كأكثر ما يكون في الدنيا، أضاف: «ومعك أيضاً. أوَلَم تدركي ذلك حتى الآن؟».

***

تلك الليلة كاد يحدث في حانة الساحة ما كان يبدو محالاً، لمّا انطلقت المراهنات. تعادل! إذْ وصلت آخر حافلة ونزل منها ثلاثة ركّاب وكلب. ولمّا كان زوجان وابنتهما وقطّ على أهبّة الصعود، فرَّ الحيوان بأقصى سرعة ورفضت الطفلة أن ترحل من دون جالب الحظّ لها. إذاً، نزل ثلاثة ركّاب وكلب، لكن لم يصعد أحد. «هذا من عمل الساحرات»، قال صاحب الحانة ضاحكاً بينما كان القرويّون ينكتون بألسنتهم أو يأتون على آخر قدح من العرق. وكانت بالِريا وبدرو قد راهنا وحدهما على الركّاب الوافدين، فجمعا أرباحهما وهي زوجان من الأوراق المالية، وكثير من قطع النقد المعدنية التي جعلها أخي تدندن في جيبه طوال طريق العودة إلى البيت. أنا لم أقامر ولا تريستان أيضاً. وكنّا نمشي كلانا ضائعَيْن في أفكارنا. ولقد رغبت مدّة ثوان معدودات أن أتصوّر نفسي، بمصادفة من مصادفات الحياة التي يعزوها الناس إلى الحياة، أنّنا كلينا نفكّر التفكير ذاته. لأنّ خالي قد ضمّني ذلك المساء إلى عالمه بوضوح، وما زلت منفعلة، والآن كنت أرغب بكلّ قواي في أن يحس هو أيضاً أنه متأثّر. ولكني أنعمت النظر إلى وجهه ولم تكن لي وسيلة إلا أن أنبذ الفكرة. كان يبدو مشغول البال. وفوق

ذلك، لو رجعت بالذهن إلى الوراء ودخلت الحانة، لاستعدت فوراً صورة تريستان عند الحاجز وهو يأخذ رسالة سلّمها له صاحب الحانة. والقضيّة في ذاتها ليس لها أدنى أهميّة؛ فالخالان كما كلّ الجيران، يتلقّيان بريدهما هناك. لكن يبدو لي أنّي أكتشف الآن بالذكرى ملمحاً من الاستياء على وجهه، والانزعاج والضجر. وربّما من الخوف، وإن بدا هذا مبالغة. لأنّ خالي مزّق الظرف وشرع يقرأ مدّة ثوان تقريباً. ثم نظر بسرعة إلى حيث كنّا: بالِريا وبدريتو وأنا، وكأنّه كان يخشى أن نكتشفه، فاستدار ومزّق الرسالة إلى ألف قطعة. ولم أفكّر حينئذٍ في شيء. لكنّ ذهني حفظ المشهد خاصّة السيماء التي ارتسمت على وجه تريستان. وهي السيماء ذاتها لمّا فتح الباب الآن. إنه مشغول البال أو قلق. وخمّنت أنه لن ينشر هذه الليلة أيّ خريطة ولن ندردش مدّة ساعات ترافقنا بالريا بالقرع وروائح الثوم الواخزة والطين والفواكه الناضجة أو المياه الراكدة.

«أنا مُتعب» – علّق ببساطة بعد العشاء.

وتثاءب بدريتو في الوقت ذاته تقريباً.

«اليوم لا أريد حليباً» –قال وهو يطبق فمه– «لكني أسأل عن شيء لا أفهمه جيّداً. إذا كان الوازي وانو مختلفين عنّا... فكيف يتكلّمون مثلنا؟».

واستفهمه تريستان بالنظر. أمّا أنا فقد فهمته فوراً. كان يسأل لِمَ يقول السكّان المحليّون في مكان بعيد جدّاً عند التأكيد «نعم»، وعند النفي «لا»، مثلما نفعل نحن، وكان بدريتو يستبق أفكاري أحياناً.

«في يوم آخر» –أجاب تريستان بعد ثوان– «الآن نحتاج إلى الراحة».

فركلني أخي من تحت الطاولة. وتمتم من بين أسنانه: «يبدو لي أنه لا يعرف».

وتثاءب مرّة أخرى. وأنا كنت أشعر بالتعب أيضاً. لكني أبطأت تلك الليلة مدة طويلة لمقاربة النوم على الرغم مما حاولت، بينما كان بدرو ينام في سريره بهدوء. ولم يكفّ تريستان وبالريا عن الصياح والأنين والاسترسال في ألعابهما الغراميّة بحماسة أكبر من السابق، وكأنّما مرّت عليهما قرون لم يلتقيا فيها؛ أو أنّهما يخشيان ألّا يلتقيا مرة أخرى في ما بقي لهما من الحياة، أو أنّ تريستان، وهذا ما خطر ببالي فوراً، يُريد أن يُظهر لبالِريا أنّها بالنسبة إليه المرأة الوحيدة في العالم.

***

«وا wa» في لغة الوازي-وانو تعني رجلاً، أو بشكل أدقّ «الرجل». وهناك أمثلة كثيرة في تاريخ البشرية (وقد قصَّ تريستان علينا بعضاً منها)، تتواطأ فيها المصادفة والخطأ والالتباس لتسمية أراضٍ وأناس بأسماء ما كانت تنطبق عليهم حتّى تلك اللحظة. وتاريخ الغزو مملوء بها. وتاريخ الوازي وانو (وإن لم يغزهم أحد ولم يخضعوا لأحد) ما كان يقتضي بهذا المعنى استثناء. هم كانوا «الرجال» وحسبهم ذلك. فلم تكن لهم علاقاتٌ مفرطة مع شعوب أخرى ولا قبائل أخرى. لكنّ عزلتهم الطوعيّة ما كانت تستبعد أيضاً أن تراهم في وقت ما جماعاتٌ من البيض، حتّى إنّهم استطاعوا أن يقيموا معهم اتصالاتٍ متفرّقة. وربّما كان الأمر بهذا الشكل، لأن المستعمر والباحث وتاجر الخشب والمطّاط إلى جانب المبشّرين وأصحاب البعثات علّموهم الإثبات والنفي في معاملاتهم الأولى. وربّما هم أنفسهم استنتجوا ذلك بذكائهم وسرعتهم وحذرهم. والقضية هي أنّهم تبّنوا «نعم» و«لا» ووسّعوا طابعها في القبول والرفض. وكانوا يستعملونهما في علاقتهم مع الغرباء مسبوقتين دائماً بكلمة «وا». وازيبي تعني «الرجل يقبل» أو وانووو «الرجل يرفض». أو القول بشكل آخر:

هم -الرجال- كانوا يستطيعون تقدير هيئة الغريب من أوّل نظرة، وعلى أساسها يتصرّفون. وربّما ما كان يُعجبهم كثير من الزوّار الدخلاء، لأنّهم سرعان ما كانوا يطوّرون مواهب كبيرة في التخفّي حتى بلغوا هذه المهارة الأسطورية بألّا يظهروا للعيان. وكلّما أصبح محيطهم خالياً من الأشجار، ومياه الأنهار ملوّثةً، والأسماك موبوءة، والنّباتات سامّة، كانوا يبحثون من غير كللٍ عن مناطق أخرى يستقرّون فيها ويبنون قراهم مرّة أخرى. لذلك -وعند هذه النقطة مرّر تريستان يديه كلتيهما على الخريطة الخضراء بكلّ مداها- لذلك لم يكن بالإمكان التقرير بدقّة في أيّ مكان يوجدون حاليّاً. وقد حوّلتهم غريزة البقاء على قيد الحياة إلى رُحّل. البعض منهم تائهون غير منظورين عمليّاً ويسمّون الوازي وانو، أو بالحَرَا، هو الاسم الذي أطلقه ممثّلو الحضارة المزعومة على شعب من الشعوب يكاد لا يُعرف عنه شيء. هو وازي-وانو بالنسبة إلى الناطقين بالإسبانيّة، وهو وازيم-وانا بالنسبة إلى البرتغاليّين والبرازيليّين. وهو الاسم ذاته بالضبط.

«حسن!» - قال بدريتو. وهزّ كتفيه.

أخذ أخي يفقد شيئاً فشيئاً اهتمامه بشروح تريستان الحارّة. وفي الوقت ذاته كان يزداد حماساً للتعليمات العملية التي كانت تصدرها له بالريا: القفز في النهر، وفنّ جدل الأغصان أو البراعة في تقليد أصوات القطط والكلاب والماعز والدجاج وعصافير المحيط. ولم أره قطّ من قبل جدَّ سعيدٍ ومرح كما هو الآن وكأنه في مُخيّم أو جالية صيفيّة. لكن، كلّما كانت تتضاعف الأنشطة في النهر والنزهات في الجبل أيضاً بحثاً عن بقايا نباتات أو بعر، كنتُ أنا أؤثر البقاء في البيت أتحدّث إلى تريستان وأسجّل في دفتري الصغير كل ما كان يشير به إلى الوازي وانو. ولم يبقَ في دفتر المذكّرات ورق تقريباً، وكان يسرّني أن أتحقّق من التقدّم الكبير الذي تمّ

منذ الليلة الأولى التي كان أبطالها الحقيقيّون الـ«باكاهورا» والوازي-وانو. وما كانت في المقابل إلّا سؤالاً.

لكنّي الآن، أصبحت أعرف عنهم، وليس فقط أنّي أصبحت أعرف، وإنّما كنت أشعر بعاطفة خاصّة جدّاً نحوهم، وكأنّ هؤلاء الناس العجيبين كانوا بانتظاري منذ ولادتي، أو كأنّ تلك الأرضَ كانت مكاني الأصلي أو مقصدي فحسب. وإنّ شيئاً شبيهاً بذلك كان لا بدّ لتريستان من أن يشعر به لمّا تلقّته امرأة الغابة بوجهها المملوء بالأشكال الهندسيّة وتحمل طفلين معلّقين بخرج، تلقّته من غير كلام ورحّبت به أصدق ترحيب. لأنّ ذكر كلمتين فحسْب استطاع أن يُحدث فيّ طمأنينة كبيرة وسروراً كثيراً لم يُحدثه فيّ شيء من قبل، حسبما تبلغه ذاكرتي. ولقد حكيت ذلك لتريستان. هذا ما كان يحدث لي تلك الأيام. فكنت أتمتم قبل النوم بـ«وازي-وانو» وكنت أحسب نفسي أني أصبحت هناك مباشرة، في مكان مدهش ومألوف في آن واحد، محاطةً بوجوه ودودة متكلّمة بالذهن أو مستمعة لنصائح حكيمة وإيحاءات غير معهودة، لا سيّما أنّي كنت أرى. وكانت الذكريات تمرّ أمامي من غير انقطاع وهي أكثر حيوية من ذي قبل. ذكريات قديمة، إنّها ذكريات الذكريات، وأحياناً محالة أكثر ممّا هو شائع. لأنّني كنت أستطيع أن أعيش مرّة أخرى بسرعة صورَ أولئك الذين لم يكن لي بهم علم حتى ذلك الحين... كطقوس القبيلة واحتفالاتها مثلاً، أو أصْلِ تلك الرسوم التي كانت تغطّي الوجنات وجباه بعض السكّان المحليّين؛ هي وإن كانت تبدو رسوماً ووشماً ما كانت شيئاً آخر غير طفح لبعض المشاعر. مشاعر الحبّ والبغض والخوف والغضب والرأفة والكرم... علامات تدوم ما دامت العواطف التي أثارتها. وكانت تتبخّر بالشكل الذي كانت تظهر فيه.

«هذه لغة أخرى من لغاتهم الكثيرة» -قال خالي ذات مساء من تلك الأماسي في الحانة- «هي لغة أخرى. وهي جدّ معبرة كما الكلمات تقريباً».

لكنّه لم يُبدِ أيّ دهشة إزاء ما كنت كشفت له عنه للتوّ. إنّها مدّة معلّقة في الزمن كنت أستطيع الوصول إليها بإطباق العينين والتركيز على نفسي فقط. بل على العكس. وكأنّ الأمر عبارة عن شيء معروف أو أنّنا ربما كنّا تكلّمنا عن ذلك كلّه سابقاً. فاقتصر على إشعال غليونه وغمغم من بين أسنانه: «حكمتهم ستساعدك على حلّ كثير من المشاكل، وإن كنتِ أنتِ من يجد الحلّ دائماً» -ونفث أوّل دفعة من الدخان وطردها وهو يطلق حلقات نحو السقف- «هي حالة روحية. الوازي وانو هم في الغالب الأعمّ حالة روحية».

دأبنا على الذهاب إلى الساحة كلّ يوم في الساعة نفسها. وكنّا نشارك أحياناً في اللعبة المحليّة ونراهن على الركّاب الوافدين والمغادرين. وفي أحيان أخرى ما كنّا ننتظر ظهور آخر حافلات الخطّ. كنّا نتناول مرطّباً ما، ويأخذ تريستان بريده، ونسير بهدوء باتّجاه البيت. ولم أره قطّ مرّة أخرى يمزّق رسالة، ولا يبدو مشغول البال أو قلقاً. وذات مساء من تلك الأماسي التي كنّا نتحدّث فيها عن أيّ شيء في طريق العودة إلى البيت يتبعنا من قريب بالريا وبدريتو، بيّنت له: «اليوم حلمت بعمّتي برتا شابّةً. وكانت في الحلم جميلة بشكل لا يُصدّق. وكانت جذّابة!»، وشرع خالي يضحك.

- لم يكن ذلك حلماً. عمّتك برتا كانت جميلة بشكل لا يُصدّق. لكنّها جبانة. هي نفسها نقشت مصيرها.

ولمّا أصبحنا في الباب تقريباً ربّت على كتفي بينما كنت أحاول أن أجد معنى لكلماته.

- الجبن أو الإفراط في الحيطة، وهما سواء، ينقلب على صاحبه. ولا تنسي هذا أبداً!

وسرعان ما انقبض وجهه كما ليلة مزّق فيها الرسالة إلى ألف قطعة وهو يحسب أنْ لم يره أحد. لكنّه ما كان يفكّر الآن بالعمّة برتا. وأنا على يقين من ذلك وكأنّ خوفاً قديماً استقرّ للتوّ في تفكيره وجاء بفعل تداعي أفكارٍ غير متوقّع، ونظر إلى الخلف، إلى المنعطف على بُعْد أمتار قليلة حيث كانت بالريا وأخي يجمعان حجارة من الطريق، وتمتم مطمئنّاً إلى أن أحداً لا يسمعه.

- والغيرة. ولا تنسي ذلك!

***

لم تكفّ أمّي عن الاتّصال بنا كلّ ليلة وفي الساعة عينها دائماً. أوّلاً، كانت تكلّم تريستان ثم تكلّمنا، وإن كنّا نحن الثلاثة سنتقاسم، حينما يدوّي صوتها حتّى آخر ركن في البيت، الأخبارَ ذاتها وفي الوقت ذاته. أبي يتحسّن وضعه بشكل واضح. وهذي كانت الأعجوبة الجديدة. جديدة أخذت تصبح قديمة. لأنّ أمّي كانت تنقلها إلينا كلّ يوم وبحماس وبقسمة مضاعفة ثلاث مرّات. إذْ كانت تنقلها إلى تريستان أوّل ذي بدء. ثمّ بعد ذلك إليّ. وأخيراً إلى بدريتو، وما كانت تنسى قطّ أن ترسل قبل أن تودّعنا تحيّة إلى بالِريا وشكرها الضخم لها لوجودنا في بيتها. وكانت بالِريا تقوّس حاجبيها، وهي تهزّ رأسها باسمة، سواء أكان من المطبخ أم المخدع أم من أيّ غرفة أخرى تكون فيها. «لكن، إن كان يسرّني وجودهما هنا...» كانت تقول.

وفي يومٍ من تلك الأيّام رنَّ الهاتف بشكل مختلف. ولم يكن ذلك

هو الميقات المألوف. وما عدا أمّي، لم يتصل أحد حتى الآن بالخالين منذ وصولنا إلى القرية واستقرارنا في بيتهما. كانت بالِريا تُمسك السمّاعة بيدها وتردّد بصوت مرتفع جدّاً «آلو!». «آلو!». «من أنت؟». ولمّا رأتني ابتسمَتْ وهزّت كتفيها. وكانت توشك أن تعلّق السمّاعة لمّا سمعنا كلانا بشكل واضح أنّ أحداً ما على الجانب الآخر من الخطّ قد هتف لها للتوّ. وتكرّرت المكالمة في أيام أخرى وفي أوقات أخرى. وقد هُرعتُ أنا نفسي أكثر من مرّة لأجيب. وكلّ ما كنت أحصل عليه هو الصمت المعروف الذي ينتهي بالقطع النهائي المغيظ والمحبط. لم يكن ذلك خطأً، ولا بسبب عطل أيضاً، وبشكل خاص أبعد من أن يكون نكتة. لكنّ ذلك الرنين من غير جواب لم يكن يشي بشيء حسن. شيء ليس حسناً وشيء غير سليم ومريض بوضوح. شيء أحمق، وربّما كان جثم بخطا عملاقة على صيفنا الهادئ. وكان من السهل اكتشافه في استياء بالريا المطّرد وفي موقف تريستان اللامبالي. لأنّ تريستان ما كان يثير اضطرابه بشكل مطلق أن يرنّ الهاتف كما يهوى، وألّا يُجيب أحد عند رفع السمّاعة. وكان يبدو منشرح الصدر جدّاً وغير مكترث وراغباً جدّاً في أن يكون الأمر واضحاً بأنّه هو تريستان ما كان يُولي أدنى أهميّة لما كان يجري، حتى شككت فوراً أنّ ما كان يحدث حقّاً هو تحديداً عكس ما يقول تماماً. فنظّمت سلسلة أفكاري، أو بالحَرَا، لم أكن بحاجة إلى فعل ذلك، لأنّ القطع الضئيلة التي كانت بحوزتي تولّت تجميع نفسها من تلقائها: الرسالة الممزّقة، ومظهر وجه تريستان بين القلق والخوف أو إشارته إلى الغيرة منذ أيام سابقات ونحن في طريق العودة إلى البيت. وكأنّي به يعيش مرّة أخرى حدثاً عاصفاً من الماضي ويخشى بوجه خاص أن يعود فيحدث مرّة أخرى.

وفي الليل، بينما كنت ألفظُ «وازي-وانو» قُبيل النوم وأنا في السرير،

ووقائع النهار تزدحم على أبواب النوم، حينئذٍ كنت أرى كلّ شيء بوضوح أكبر. كنت أخلط صوراً ببقايا السهرة في المطبخ وبجمل العائلة التي كانت تشير إلى تريستان والتي ربّما سمعتها ذات يوم، لكنّها كانت الآن تكتسب معنىً غيرَ مُنتظر. وكنت أشعر بقدرتي على تسمية الوضع الذي كنّا نعيشه. إنّه حماقة وتفاهة كان يمكن مع ذلك أن تنتهي بمأساة بشكل محتوم. لأنّني أدركت بمحاكمة جيّدة غير مطابقة للسنّ التي كنت فيها حينئذٍ، أدركت إلى حدٍّ ما أنّ الحياة تتولّى إيضاح نفسها بعد ذلك بأمثلة عديدة. لأنّ جدلاً، أو هيجاناً وقطيعةً ما في النهاية يثيرها في الغالب حدثٌ، لا تعني شيئاً في حدّ ذاتها، إن لم تُحِلْ إلى أحداث أخرى كان لها في وقتها معنى. وهذا ما كان يحدث مع هذه المكالمات أو مع الرسالة أو خوف تريستان. وكأنّ الزمن يدور حول نفسه ويتكرّر. وإذا كان خالي مزّق الرسالة ولم يقل شيئاً لبالِريا، فذلك لأنه كان يخشى ردّة فعلها. ثمّ الغيرة. ولعلّ هوىً سقيماً ما دفع خالي إلى الانسحاب إلى قرية ضائعة وسط الجبال. وكنت على استعداد للدفاع عن براءة خالي. فقد كان هذه المرّة على الأقلّ، بريئاً، والتشويش الحاصل يقع على عاتق ماضٍ، هو الماضي البهيج الذي جرى الحديث عنه في العائلة في مناسبة ما. ماضٍ يجهد ليزوره في لحظة هي أقلّ اللحظات ملاءمة له. فتريستان حطّم كثيراً من القلوب على قول أمّي. لكنّ هذا كان من قبلُ، ولا يمكن إلا أن تكون على يقين من ذلك، أي قبل أن يعرف بالِريا التي كان يحبّها ويحترمها بعمق والتي كان يحميها على طريقته. والآن أصبحتُ أدرك ذلك. لذلك كان يحاول أن يُبقيها بعيدة عن كلّ ما يمكن له أن يؤذيها، وكأنّها لم تكن غير طفلة على الرغم من قوّتها الظاهرة، أو كأنّها مريضة.

***

وما كان عليّ إلّا الانتظار لأتثبّت من مخاوفي. فقد رنَّ الهاتف ذات ليلة مرّة أخرى بُعيد مكالمة أمّي المألوفة. هذه المرّة أخذه تريستان. وأتذكّر أنه قال: «نعم، قولي!» بشكل طبيعي، معتقداً أنه بصدد أخته من جديد، وأنّها نسيت أن تبيّن له شيئاً. لكن، في هذه المناسبة أيضاً أجابه الصمت. صمت كثيف ومهدّد جعل وجه خالي ينقبض. وسمعته من غير أن أتنفّس تقريباً عند طرف الممشى ورغبت في أن يُغلق الخطّ، وأن يفعل ذلك مرّة واحدة، أو أن يسبقه الشخص الغامض على الطرف الآخر، فيقطع الخطّ بشكل فظّ كما عوّدنا. لكنّه أبطأ ربّما عمداً، وكأنه آثر، وقد سئم هذا الوضع، أن يحدث ما يجب أن يحدث بأسرع وقت. فحدثتْ في لحظات معدودات الخسّةُ والحماقة، ووقعت الواقعة التي كانت تفتقر في ذاتها إلى أيّ أهميّة. ورنَّ الجهاز القديم من جديد كأنّه مذياع قويّ، وانتشر صوت امرأة معسولاً هامساً في زوايا البيت كلّها. لم أفهم شيئاً ممّا كانت تقول. وما كنت أفهم ما كان يقوله خالي لمّا قاطعها بلهجة مفاجئة من الغضب أفزعتني. ولا الآن أستطيع بعد سنين طوال أن أستعيد بذاكرتي كلمة واحدة تسمح لي أن أجازف بها حول طبيعة اللغة التي كانا يتجادلان بها. لكن، بنبرة الكلام، لم يبقَ عندي شكّ. هي كانت تطلب وهو كان ينفي، وهي كانت تقترح وهو يرفض. وما كان إلحاح المرأة يعمل شيئاً إلّا مضاعفة غضبه. وأخيراً، صرخ تريستان صرخة كما كنت سمعتهم يصرخون في المسرح، وإن يكن فقط ليكون واضحاً لنا جميعاً أنه لا يريد أدنى تعامل مع صاحبة ذلك الصوت المعسول والهادئ. صرخ بلغتنا لكي نفهمه جميعاً.

– لا تهتفي مرّة أخرى! وانسينا!

لكن، قد كان سرى السمّ.

***

هناك أشياء كثيرة لن أعرفها أبداً. من هي هذه المرأة مثلاً؟ وما الذي حدث منذ مدّة من الزمن لكي يصبح الوضع الآن خانقاً؟ ولن أعرف ما إن كان الأمر أمر امرأة واحدة، أو نساء عديدات. والشيء الثابت هو أنّ أحداثاً تسارعت.

فقد أكبّت بالريا على شرب الخمر بسرعة مدهشة. ولقد تركتها في المطبخ ومعها زجاجة من الخمر فُتحت حديثاً، ولمّا عدت بعد عشر دقائق تقريباً فإذا بالزجاجة فارغة عملياً. وبدا بوضوح أنّنا لن نتناول العشاء تلك الليلة على الأقلّ، بالهدوء المعتاد. وكان تريستان وضع جبناً ونقانق وخبزاً على المائدة. أمّا أنا فقد زال عنّي الجوع.

«ما أجمل هذا كلّه! أليس صحيحاً؟» -قالت بالريا فجأة وهي تنظر إلينا بعينين معتكرتين- «لا تصدّقا كلمة واحدة ممّا قصّه عليكما خالكما!».

كانت تتكلّم بصوت متهدّج ومتلعثم وكأنّها ممثّلة سكرى في فيلم. وتجنّبت النظر إلى تريستان.

- أنا سأقصّ عليكما القصّة الحزينة، يا صغيران.

وكرّرت كلمة «صغيران»، وشرعت تضحك مقهقهة، ونشرت الخريطة الخضراء التي كنّا قضينا إلى جانبها سهرات كثيرة. وأشّرت إلى بدرو إشارة. إذْ كان علينا أن ننسحب أبكر ما يمكن.

«هذا لن يكون!» -والآن كانت بالريا تهدّدنا بتوجيه سبّابتها إلينا- «ظلّا هنا واسكتا واهدأا! وعليكما بالإنصات!».

لم أرغب قطّ في شيء من قبلُ، بهذه القوّة: في أن أذوب، وأختفي وأترك الزوجين في المطبخ وأتظاهر في اليوم التالي أنْ لم يحدث شيء. لكن، ما كانت توجد وسيلة لتجنّب ما طرأ علينا. وشربت زوجة خالي

ثمالة الزجاجة بجرعة واحدة ونهضت واقفة. ومزّقت الخريطة. وبدت لي أصابعها مدّة لحظة واحدة مخالب. وذكّرتني ضحكتها بضبع. وفكّرت في أنّ بالريا مريضة، ومريضة جدّاً.

- الوازي-وانو غير موجودين!

قالت ذلك ببطء، وهي تتسلّى بموسيقا الكلمات وتلفظها بمبالغة مدروسة. وكانت تتوجّه بها إلى العنوان الوحيد: إلى تريستان. ولم أستطع هذه المرّة تجنّب النظر إليها. كان وجهها أحمر، وانتفخ عِرقٌ على جبينها.

«كلّ هذا في داخل هذا الرأس الصغير» -تابعت- «رأس عالم أجناس بشريّة من الدرجة الخامسة. هي أحاديث خرافة يمكن لها أن تخدع الأطفال فقط».

أمسكتُ بأخي من ذراعه وتركناهما وحيدين. فتبعني بدريتو من غير أن ينطق بكلمة. ودخلنا حجرتنا وأقفلت القفل. الأمر سيكون جديّاً وجدّياً جدّاً. وربّما من أجل ذلك تمتمت لأطمئن أخي أو لأخدع نفسي: «مشاجرات محبّين».

فسمعنا ضوضاء زجاج يتكسّر، وأوعية يُقذف بها على الحائط، وعلى بلاط الأرضيّة، وطناجر كانت تدوّي كأجراس جنائزيّة. وشتائم، كومة من الشتائم واتّهامات متبادلة. وزعيق كان يخترق الهواء كالسهام. وكان يزداد حدّة ويصبح أقوى، وتصوّرت أنّ شيئاً ما سوف يحدث بين لحظة وأخرى. حينئذٍ قمتُ به. ولا أدري حتى الآن كيف استطعت. فصرخت بقواي كلّها صرخة هي أقرب إلى صرخة حيوان متوحّش منها إلى صرخة إنسان. صرخةٌ انطلقت من أعمق أعماق حشاي. كانت طلقة تدخل الآذان وتخترق الروح. صرخت: «وانووووو!».

وتوقّفت الأصوات في الحال.

ووجدت نفسي لاهثة من غير رئتين ودَهِشة ومتحرّرة في آن واحد، ومتنشّقة الصمت الذي سقط فجأة على البيت. وما كنت أسمع غير لهاثي ذاته ونفَس بدريتو ودقّات قلبه التي كانت تزداد قرباً. وبعد ثوانٍ معدودات طوّقني بذارعيه، ولبثنا على هذا الشكل مدّة طويلة، إلى أن نام.

***

أخذتُ بإعداد حقيبتي بينما كان أخي ينام كملاك. وما كان يصل من بقيّة البيت أيّ ضوضاء. ولربّما بسبب ذلك أجفلني صوت معدنيّ بشكل كبير. فأطفأت الضوء ونظرت من النافذة. كانت بالريا عند باب المرأب وهي تعالج قفلاً. كان شعرها منفوشاً، وكان على كتفيها معطف، وما كانت ترتدي غير قطعة قماش كانت تسبح بها في النهر ملفوفة على خصرها. وعلى ضوء القمر اعتقدت أنّي أميّز علامات على جلدها. إنها رسوم. فانثنيت من فوق الإفريز. كان وجهها وقسم من جسمها مغطّى بأشكال هندسية. لكنها ما كانت تشبه في شيء الرسوم التي أضفتها مُخيّلتي على امرأة تريستان المُنقذة في الغابة. كانت أشكالاً عدوانيّة دمويّة وكأنها نُحتت ضرباً بالقدّوم. ولئن كانت تتحدّث عن شيء أو تعبّر عن لغةٍ ما كما أفهماني خلال هذه الأيام كلّها، إلّا أنّها ما كانت توحي إليّ بشيء آخر غير غضب واستهجان وفقدان توازن. ثمّ دخلت المرأة المرأب أخيراً. وانتظرتُ. وبعد دقائق قليلة أضاءت مشاعل الشاحنة القديمة الحقل، وضاعت من ثمّ في الطريق.

أشعلت الضوء وتابعت جمع أغراضي. فهذه الأيام الملأى بالاكتشافات أصبحت تشكّل جانباً من الماضي. لكنّي ما كنت أريد أن أفكّر في هذا ولا

أن أحزن. وبعد قليل سمعت صوت خطا في الممشى. فانتظرت، وما لبثت حتّى تعرّفت إلى صوت أمّي: «ماذا جرى، يا تريستان؟ أحدث شيء؟».

ومن الحجرة كان يُسمع صدى السماعة خيراً من كلمات تريستان. وفتحت الباب مواربة. وكان خالي يعتذر لأنّه اتّصل في وقت متأخّرٍ.

- لقد نشأ شيء مزعج، بالحَرَا، شيء مواتٍ. سوف نرحل غداً صباحاً.

وسمعت صمتاً، صمتاً طويلاً. أقول حقاً: إني سمعت. وكان يُسمع الصمت في ذلك الهاتف كما تُسمع الكلمات إن لم يكن خيراً منها.

- أعدتَ إلى إغضاب بالريا؟ أليس كذلك؟

وأغلقت الباب. كان تريستان يكذب بشكل رديء، رديء إلى أقصى حدّ. وربّما كانت أمّي مطّلعة على سورات غضب امرأة أخيها. وما كانت تهمّني بقيّة المحادثة. فسوف نعود إلى البيت في اليوم التالي في أوّل حافلة. هذا آخر ما سمعته ممّا قالته لتريستان. وهذا ما كنتُ عزمت عليه منذ هنيهة لا أكثر ولا أقلّ.

- آمل ألّا يكون الصغيران قد أزعجاك.

وهنا كانت نهاية خير صيف في حياتي، بشكل غير متوقّع وفظّ. أطبقت الحقيبة وتابعت إعداد حقيبة بدريتو وجلست على السرير.

وبعد ساعات دقّ تريستان باب الحجرة. كان يلبس ما كان يلبسه الليلة الفائتة. وكان مشعّث الشعر وتفوح منه رائحة خمر. وبدا لي أوّل مرّة عجوزاً. فرجل في الخمسينات في نظر طفلة في الثالثة عشرة هو عجوز. وشعرت بالحزن، حزن الدنيا كلّه. ونظر إليّ وحاول أن يظهر بمظهر طبيعي، حتّى لم يُبدِ دهشته بأن يكون متاعنا جاهزاً.

***

بالريا ما كانت تحبّ الوداع، خاصّة إيقاظها في أوج النوم. وفوق ذلك، كانت عانت الليلة السابقة عسر هضم وكانت بحاجة إلى الراحة. لكنها وعدتنا بشكل جليل أنّها متى اجتازت البحر فسوف ترسل إلينا بطاقات بريدية. أتفهمان؟

«من البرازيل والبيرو والإكوادور وكولومبيا أو فنزويلا...» - قال أيضاً. وأنا تجنّبت النظر إليه.

كنّا نسير في الطريق كأنّنا ثلاثة أشباح، وكأنْ لم يكن بيننا شيء مشترك. وكان أخي شبه نائم وغاضب لأنّ بالريا لم تودّعنا. وكان تريستان يتنفّس كمصاب بالربو ومُحتبساً في خرس حديدي بعد سيل الاعتذارات والأكاذيب. وكنتُ أصغي إلى الصمت مرّة أخرى، وأسأل نفسي أسئلة كثيرة، لن تلقى جواباً يقيناً. ولمّا وصلنا إلى الساحة تنفّستُ بعمق. كانت الحانة قد فتحت بابها في تلك اللحظة بالضبط. فنظر إلينا صاحبها والمكنسة في يده، من غير أن يُخفي دهشته. «وهذا؟»، سأل وهو ينظر إلى الحقيبتين. فلم يزعج أحد منّا نفسه بإجابته. لكن، سرّني أن تكون الحانة مفتوحة وصاحبها موجود هناك كأيّ صباح لم يحدث فيه شيء غير مألوف. وتذكّر تريستان أنّنا لم نتناول فطورنا. فأعدّ بنفسه طاولة وكرسيّين وطلب زوجاً من قطع الحلوى لأجلنا. ثمّ استند إلى الحاجز بمرفقه وشرب قدحاً من الكونياك جرعة واحدة.

«أيّ شيء هو عسر هضم؟» - سأل بدريتو.

«ما عانته بالريا بالأمس» -أجبت من غير أن أنظر إليه وأنا منجذبة نحو الحاجز- «هو مرض يمضي سريعاً».

وكان أخي غاضباً.

«الذنب ذنبه» -وأشار إلى تريستان- «كلّ ما كان يقصّه علينا أكاذيب، وعاملنا كأنّنا أطفال صغار».

وأخرج من حقيبته دفتر رسومه ونزع ورقة منه سرعان ما تعرّفت إلى ما فيها. إنها صورة بالريا. نصفها بشر ونصف جاغوار. وهي تقذف بنفسها في النهر.

«والرسوم الأخرى لا أريدها» - قال.

وكان ينوي أن يمزّقها لكنّي منعته. وتشاجرنا. وانتهى بأن استسلم وهزّ كتفيه. وحفظ الورقة الوحيدة التي كانت تهمّه في حقيبته. في تلك اللحظة، وردت إلى ذهني برتا، وألبومي، ألبوم صور العروق البشرية، وجدالنا... وكان الموقفان متشابهين في شيء ما. رسوم يريد أحدٌ ما أن يمزّقها، وآخر يحاول منعه. لكنّي الآن أصبحت أدرك كلّ شيء كما في الهجعات التي كنت أحدّث خالي عنها. رأيت برتا مرّة أخرى شابّة جميلة بشكل لا يُصدّق، عاشقةً تريستان الفاتنَ والمغامر، باندفاع وجنون. لكنّها حريصة جدّاً على سلامتها حتّى لا تقبل أيّ شكل آخر من أشكال الحياة. ومن هنا كانت المرارةُ والبغض والعجز عن كبح النفس لمّا تعرّفتْ بعد سنين كثيرة إلى هذه الميول نفسها لدى ابنة أخيها. هي حطّمت مستقبلها بجُبْنها، و«إفراطها في الحيطة»، تذكّرتُ. هو شيء لن أنساه أبداً، ولن أنسى بالريا وسوءها الرهيب، سوء الغيرة.

اقتربت والدفتر تحت ذراعي من تريستان. كان قد صبَّ لنفسه قدحاً آخر. لكنّي تظاهرت أنّي لم أتنبّه له. كنت أحتاج إلى أن ينتشلني من شكوكي، ويوضّح لي ما إن كان في كلمات زوجته شيء من الصحّة، أم إنّ المسألة هياج فقط، وانتقام وانفجار يُمكن أن يُقال فيها أشياء سيّئة رهيبة،

وإنْ لم يفكّر فيها المرء من قبلُ؛ أن أعرف إلى أين يمكن لها أن تذهب وهي غاضبة ذلك الغضب؛ ولِمَ رأيت في ضوء القمر جسمها ملآن برسوم غريبة وأشكال هندسيّة؛ وأن أعرف بوجه خاص: الوازي-وانو هل هم موجودون أم غير موجودين؟

فلم أستطع أن أسأل شيئاً. ولمّا رآني تريستان نكت بلسانه مرّات عدّة وهو ينفي بهزّ الرأس في آن واحد. وأدركت أنّه يطلب منّي أن أصمت. وأدركت أيضاً أنّه، وإن لم يكن يحرّك شفتيه، كان يعرف تمام المعرفة ما كنت أفكّر فيه.

«لا!» -قال- «أنت لست كذلك».

وتنفّس بقوّة. وأمسك بي من كتفيّ ونظر إليّ في عيني. ورأيت نفسي معكوسة في عينيه مدّة من الوقت.

- أخوك ما يزال صغيراً ولسوف ينسى، لكنّك أنتِ... أنت كنت معهم... وهم قبلوك منذ اللحظة الأولى.

وأظنّ أنّه ابتسم، ولست على يقين من ذلك. في تلك اللحظة أعلن صاحب الحانة عن وصول حافلة الخطّ. فشعرت بالفرح والحزن في آن واحد والرغبات في الضحك والبكاء، خاصّة الرغبة القاهرة في أن يظلّ الخال يتكلّم ولا يتوقّف عن الكلام، وأن يرافقنا حتّى الحافلة، ولا يتوقّف حتّى يشغّل السائق المحرّك؛ لكن، لم يحدث الأمر بالضبط على هذا الشكل.

«بيدكِ مفتاح عالم سرّي» -اختتم بصوت خفيض جدّاً- «فاستمتعي به. وإذا أردت ذات يوم أن تتقاسميه، فافعلي. لكن، أحسني الاختيار!».

ولفظ الكلمات الأخيرة بلهجة بدت لي حزينة. ثمّ أعلن، وهو يرفع

يده بشكل مفاجئ، أنه هو أيضاً لا يسرّه الوداع. وربّت على كتفَي بدريتو ثمّ اتكأ بمرفقه على الحاجز. أخذنا متاعنا أنا وأخي، وصعدنا الحافلة وجلسنا في الصفّ الأوّل وانتظرنا... وما كنت أدري ما إن كان ذلك اليوم خير يوم أو أحزن يوم في حياتي كلّها. وخنق أخي تثاؤبة، وشرعتُ أتصفّح بشكل آليّ دفتر رسومه. كان تريستان فيها ضائعاً في الغابة وجذعه عارٍ وجبينه ملفوف بمنديل أحمر. وكانت هناك ايضاً المرأة المُنقِذة، وطفلاها معلّقانِ بعنقها، وكان فيها القرية التي اقتيد إليها ووجوه قاطنيها وهم يراقبون الجريح، وفيها سهام طيّارة تنطلق من ظلام الغابة، أو هم أعضاء القبيلة لحظة يذوبون مع الأشجار ويبدّلون لونهم ويغيّرون مظهرهم ويختفون في البحيرات والأراضي المستنقعيّة، أو يندمجون في وارفٍ من العالم الأخضر الضخم، أو القِمع الكبير. وكان ذلك أكثر من طريف. فتلك اللوحات التي أصبح بدريتو يزدريها، وتلك الوجوه وذلك النبات أو تلك القرى التي أمست تكتسب شكلاً على الورق، كانت تبدو شبيهة بما كنت تصوّرته. ولسوف أسأله عنها. أسأله كيف خطر له أن يعصب رأس خالنا بمنديل أحمر، أو أن يرسم قمعاً رهيباً بكلّ فروق اللون الأخضر فيه. فالمنديل هو المنديل ذاته الذي خصصته به، والدوائر المتّحدة المركز هي ذاتها التي خشيت أن تبتلعني بينما كنت أنظر بعينَي تريستان. لكنّي، لم أستطع هذه المرّة أن ألفظ كلمة. فبدريتو سقط نائماً على كتفي. فحاولت أن أجعله يستلقي على مقعدين بخير ما استطعت، ووضعت سترة تحت رأسه. وجلست في الصفّ الثاني وراءه قرب النافذة الصغيرة. حينئذٍ اكتشفت أمراً. إذْ كان السائق قد أغلق مستودع الأمتعة وسلّم سلالاً عدّة وصرّة لزوجين مسنّين كانا ينتظران على الرصيف. والآن كنت أتذكّر المشهد منذ دقائق معدودات. راكبان ينزلان وراكبان يصعدان. زوجان عجوزان وأنا

وأخي. اثنان لاثنين. تعادل! كان بدريتو ينام ملء جفونه، وصاحب المحل لم يتنبّه لذلك أيضاً، وتريستان الذي كان يغادر الحانة تلك اللحظة كان يتوجّه من غير أن ينظر إلينا، إلى الطريق الذي يقوده إلى بيته. فهُرعت حتّى الصفّ الأخير وطرقت الزجاج الخلفيّ ببراجمي، وصحت وإن كنت أعلم أنه لا يستطيع أن يسمعني: «تعادل. كان هناك تعادل!». وشرعت العربة في السير. ورفع تريستان الذي كان يولينا ظهره دائماً، يده اليمنى علامة تحيّة وكأنّه كان يخمّن أنّني أناديه. ثمّ تابع سيره وهو يتأرجح حتى ضاع عند منعطف الطريق.

***

لن أراهما مرّة أخرى أبداً؛ لن أراه ولن أرى بالريا. لقد عرفت ذلك حينئذٍ وأنا ملتصقة بزجاج عربة الخطّ، الخلفيّ. عرفت ذلك ورأيته، كما في تلك الهجعات اللذيذة لمّا كنت أجوب أزمنة أخرى وأتعرّف إلى أماكن لم أكن فيها قطّ. استطعت أن أقرأ بالفكر أيضاً بعض الرسائل التي لم تكن كُتبت بعد. رسائل مقتضبة موجّهة إلى العائلة جمعاء جاءت من أماكن قصيّة. رسائل سوف تكفّ عن المجيء ذات يوم من غير أن يقلق أحدٌ أدنى قلق. وسمعت مرة أخرى «عاشت اللامبالاة!» بينما كان والديّ يهوّمان باسمَيْن وعمّتي برتا تزمّ شفتيها مكشّرةً تكشيرةَ مرارة ملحوظة. وتعرّفت من غير دهشة إلى بدريتو راشداً ورسمياً جدّاً وجادّاً، وهو يُعدّ مخطّطات على طاولة مهندس معماريّ، وصورة بالِريا – الجاغوار قد اصفرّت إلى حدٍّ ما بفعل الزمن، وعُلِّقت ضمن إطار على أحد جدران مكتبه. لكنّي شعرت بشكل خاصّ بذاتي ملتصقةً بالزجاج مستنفدةً آخر لحظات من ذلك السفر وأعيش شعوراً لم أُوفَّق في تفسيره. هو فرح حزين وحزن بهيج

ومرّة أخرى رغبات في الضحك والبكاء أيضاً. خليط من السرور والإحباط ما زلت أتذكّره الآن على أنّه شعور عميق وحادّ لمّا تجاوزت السنّ التي ربّما كان خالاي فيها. لقد أحببت تريستان بروعة ابنة الثالثة عشرة وإخلاصها. وإنّي وإن كنت لا أجهل أنّ ذلك الحبَّ كان مستحيلاً، فقد كنت أعلم أيضاً على الرغم من كلّ شيء، أنه كان متبادلاً. ولم يخامرني شكّ في ذلك، إذْ أتذكّر يده المرفوعة على هيئة وداع، ووجهي كان ما يزال لاصقاً بالزجاج من غير أن أميّز شيئاً آخر غير الغبار الذي تثيره العربة في الطريق. لقد أوليته إعجابي والأحلام القويّة، أحلام مراهقة. وهو في المقابل خلّف لي إرثاً أحبَّ ما يملك... إنّه: عالم الوازي–وانو الأسطوري والسرّي.

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

كريستينا فرناندث كوباس:

كاتبة إسبانية وُلدت عام 1945 في بلدة آرينِس ديمار (برشلونة). وتخرّجت في كلّية الحقوق والصحافة، وبرزت على الساحة الأدبيّة الإسبانيّة عام 1980 بمجموعتها القصصية: «أختي إلبا» التي استقبلها النقّاد والجمهور بحفاوة كبيرة.

أتبعتها بعد ثلاثة أعوام بـ«مرتفعات برومال» فعزّزت مكانتها في دنيا الأدب. ثم تتالت أعمالها القصصيّة والروائيّة: «مع آغاثا في إسطنبول»، «الأرجوحة»، «الباب الموارب»، «حجرة نونا»، وغيرها.

حازت الكاتبة جائزة مدينة برشلونة عن مجمل قصصها، كما حاز كتاب «حجرة نونا» على جائزة النقّاد في عام 2015، وعلى الجائزة الوطنية للسرد في عام 2016.

علي إبراهيم أشقر:

مترجم سوري، من مواليد اللاذقية 1942. ترجم عن اللغة الإسبانية عدداً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «قلب أبيض جداً»، و«فكّر فيّ غداً أثناء المعركة» لخابيير ماریاس، «لحن ماثوركا على ميّتين» لكاميلو خوسيه ثيلا، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1989، و«موت الراقصات» لأنطونيو صولير، وغيرها.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان»:

- «مع آغاثا في إسطنبول»، كريستينا فرناندث كوباس.
- «محاضرات في الميتافيزيقا»، خوسِه أورتِغا إي غاسّيت.
- «دراسات في الحب»، خوسِه أورتِغا إي غاسّيت.
- «تيرانو بنديراس»، رامون ديل بايّه إنكلان.
- «الضفّة المظلمة»، خوسِه ماريّا ميرينو.
- «مملكة هذا العالم»، آلِخو كاربنتييه.
- «الوتر والظل»، آلِخو كاربنتييه.
- «حجرة نونا»، كريستينا فرناندث كوباس.
- «الذاكرة الأولى»، آنا ماريا ماتوتِه.
- «الجنود يبكون ليلاً»، آنا ماريا ماتوتِه.

telegram @soramnqraa

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف نجاح طاهر

telegram @soramnqraa

لا تقدّم لنا "كريستينا فرناندث كوباس" بطلاتِها بسهولة، فهي تأخذنا في مسارات مستقيمة للوهلة الأولى، وفي لحظةٍ ما، تقلب كلّ شيء رأساً على عقب، فنكتشف أن شخصياتها تضطرب بين واقعَين، الفاصل بينهما دقيق جداً، هما الواقع الثابت، والواقع المُتخيّل أو الموهوم. يطغى أحدهما على الآخر تارةً، وتحدث مصالحة بينهما تارة أخرى، من غير أن ندري أيّهما الموجود الحقيقي، وأيّهما غير الموجود.

"حجرة نونا" التي حازت جائزة النقّاد في إسبانيا (2015)، والجائزة الوطنية للسرد (2016)، عدسةٌ مكبّرة نرى فيها تعقيدات النفس البشرية والغموض الذي يلفّ حياتنا من دون أن ننجح في ملاحظته وفهمه دائماً، تعيد فيها "كوباس" النظر في الطفولة والنضج والوحدة والأسرة، لتكشف لنا أن لا شيء هو فعلياً كما يبدو، كاتبةً كلّ ذلك بلغةٍ شفيفة وبأسلوب متفرّد تضفي عليه مسحةً بوليسية، بمهارة وخفّة.

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-641-62-7

9 789933 641627 >